PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

<u>مجموعة قصصية</u>

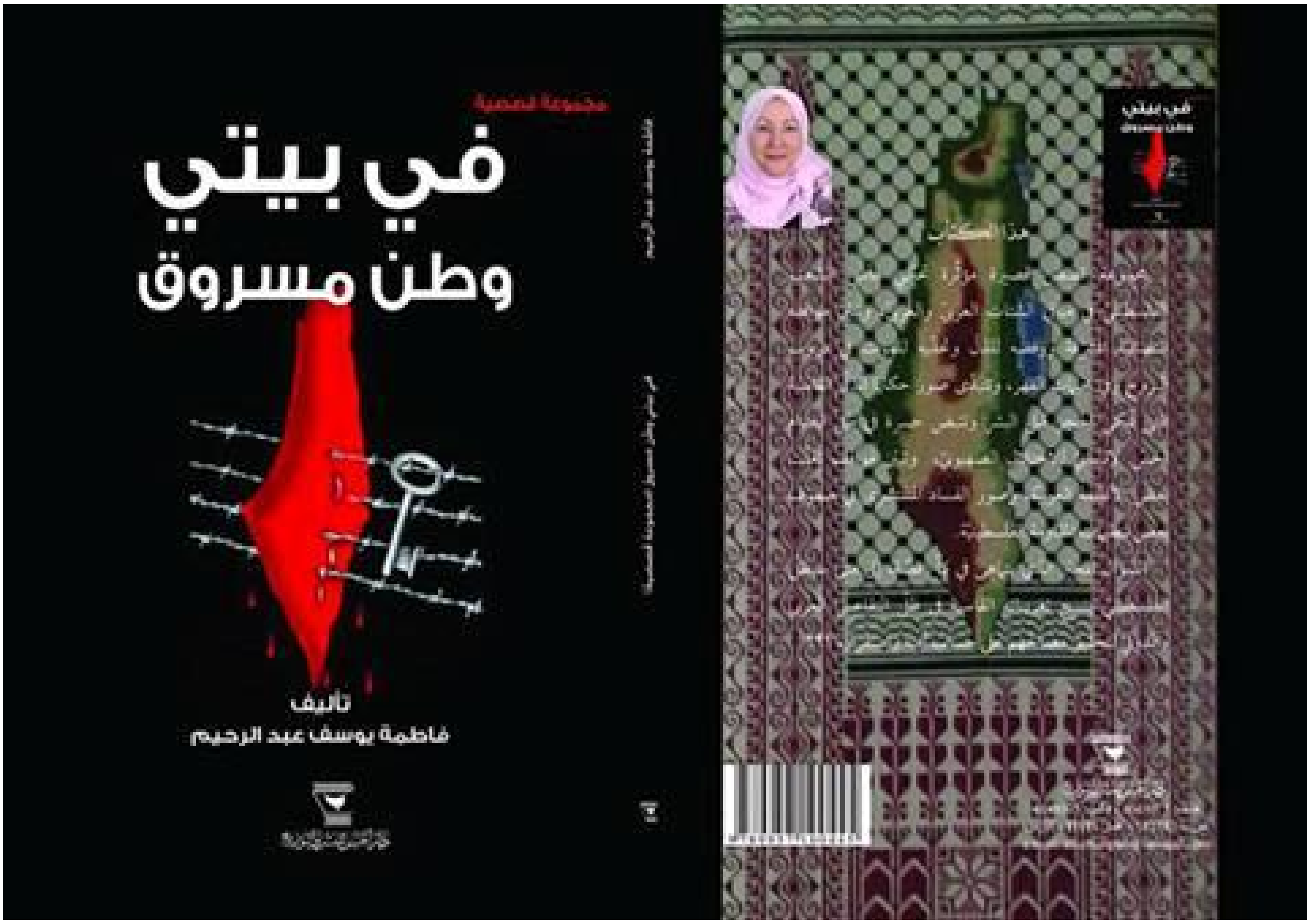

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

<u>مجموعة قصصية</u>

في بيتي وطن مسروق

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

مجموعة قصصية

أعدّت دائرة المكتبة الوطنية الوطنية
بياناتالفهرسة والتصنيفالأولية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبّر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ ـ ص.ب ١٨٢٧٤٢ ـ عمان ١١١١٨
الأردن
e.mail: alhassanpub@hotmail.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

<u>مجموعة قصصية</u>

في بيتي وطن مسروق

مجموعة قصصية

تأليف
فاطمة يوسف عبد الرحيم

دار الحسن للنشر والتوزيع
ISBN 978-9957-10-044-5

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

مجموعة قصصية

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الإهداء

إلى كلّ الشرفاء الذين دافعوا عن الحقّ الفلسطيني بنضالهم
إلى الذين جاهدوا بالكلمة الصادقة
إلى الذين رفعوا راية الحقّ عالياً
وإلى أرواح شهداء أمّتي الذين عطّروا طريق التحرير
بدمائهم الطاهرة
أهدي هذا الكتاب

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

مجموعة قصصية

١ - في الموت يبسمون

أشرفت حملة تطهير المخيم على الانتهاء، وزعموا أنّهم طهّروه من الإرهاب والوطنيّة، النتائج مشرِّفة، القتلى بالمئات والجرحى بالآلاف، السجون غصّت بالمعتقلين والمخيم كومة خراب، كلّ شيء على ما يرام، التمشيط في مراحله الأخيرة، والمهمّة أُنجزت مرحليّاً وتحقّق الهدف، صدرت أوامر صارمة من قيادة وحدة عازار بتكليفه بمهمَّة عسكريّة، ألا وهي الإشراف على مجريات الأمور من فوق المبنى العالي المشرف على المخيّم، ردّ معترضاً "إنّها منطقة خربة لم يعد فيها أحد، من أراقب؟" أمره مسؤول الوحدة "لا تجادل ولا تخالف الأوامر، استشرف المكان وراقب فقط" فانصاع للأمر.

صعد المبنى متثاقلاً، المهمّة مملَّة، لكنّه أمر عسكريّ، سرَّح بصره في كلّ الاتجاهات، إضاءات النصر تومض على مدى ناظريه، اعترته رعشة كبرياء وراودته أفكار جبروت المنتصرين، لقد أبلينا بلاءً حسناً، ورحى الدماء نتاجها وفير، الهدوء يخيّم على المكان، ولوهلة عابرة تساءل بقرار ذاته، من سيراقب؟ سكون، لا أنفاس لا حركة، حتّى تطاول الظلال تلاشى عن الجدران، ما هي إلا سويعات حتّى دبّت الحياة من جديد ودهم رأسه وقع خطوات غادية بالدروب، واحتشدت ساحة المخيّم بالخلق وبددت وحشة المكان، أطفال ونساء وشيوخ، وهمس لنفسه "أين الرجال، آه تذكرت إنّهمُ رهينة الاعتقال أو الجراح أو الموت، سؤال خدش سكينته نفسه، أمن رحم الأرض يخرجون؟

تجمّع الصبية وتعالت أصواتهم ونشطت تحرّكاتهم، للطفولة نكهة تغرّد فوق طبول الحرب، نظّموا الدوائر وشرعوا يتراكضون، حنين إلى اللّعب يعود، ترصّد تحرّكاتهم وعبثهم، توقّفوا، تساءل "ما بهم، هل ملّوا اللعب؟" تهامسوا، تشاوروا، تحوَّلوا إلى لعبة أخرى أكثر إثارة، سمع أكبرهم يأمر "واحد يختبئ والآخرون

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

يبحثون عنه وحين تجدونه، تكبّرون!!" تعالت تكبيراتهم، ضحكاتهم ترنّ في الأثير المضمّخ بعبق بارود المدافع والقنابل العنقوديّة.

شاركهم اللعب بخياله ويده تقبض على رشاشه بقوة ورجع صدى مرحهم أحيا رؤى الطفولة المتسربلة بقسوة السلاح في قلبه القتيم، رمته يقظته في لجّة ذكريات جارفة وأعادته من جنديّته القاسية إلى زمن طفولته الجادّة، يبحث معهم بعيون الطفولة الغابرة عن المختبئ ويبتسم إن عثروا عليه، توقّفوا، تنهّد متذمّراً "لم لا يستمرون! تشاوروا مرّة أخرى، وضع أكبر الصبية اصبعه عند منطقة التفكير صائحاً "وجدتها!"، سخر عازار بسرّه "أأنت أرخميدس الذي أحياه وجع الحاضر؟" وشوش أصحابه، فرحوا، صاحوا، تقافزوا هنا وهناك.

بحثوا في الخراب عن شيء ما، سحبوه من الأنقاض، ردّد عازار "ما هذا، لوح خشبيّ، بل باب من بقايا بيت متهدّم، ما اللعبة التي يتدعونها؟" تمدّد أحدهم فوق الباب، رفعوه فوق الأكتاف تجمّعوا حوله، تناولوا العيدان وعلّقوا عليها قطع قماش خرقة ورفعوها رايات نصر قادم، وداروا في الساحة هاتفين "اطلع برّه يا غدّار والشهيد حبيب الدار، دم، دم، ما نهتم وفلسطين رح نرويها بالدم".

رجع صدى أصواتهم وضحكاتهم تصفعه، نداءاتهم جمرات تتهاوى شهباً، تحرقه، تصعقه، الأصوات تتكاثر تتعالى بعنفوان، يلعبون، يضحكون، أسقطه الخذلان في شرك أوهامه، اغتاظ منهم وعلا نشيجه وعلى شفتيه لعنات "حتّى في لعبهم مقاومين، شهداء، فلسطين أيقونة مقدّسة تلهب مشاعرهم" شرارات الغضب تقدح من عينيه، تذكّر طفولته المسروقة و هوسه للّعب، لقد عُوقب بصرامة بتهمة اللعب في المعسكر، الأوامر الغاضبة تشرخ مدى الصوت القادم من ذاك الزمن "أنت هنا يا عازار لتتقن فنَّ القتل ولعبة الموت ومحذور عليك مُتع اللّعب تحقيقاً

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

لحلم صهيون"، نداءات الحقد تعوي في داخله "في الموت يلعبون ويضحكون".

التهبوا حماساً، تناوب الصبية الأدوار لاعتلاء خشبة الشهداء، تكركرت ضحكاتهم فوق اللوح الخشبي، ثارت ثائرته، تبعثرت كلماته بسوداويّة، يحاكي طيف طفولة هاربة "كتمت زغردات طفولتي في حلم صهيون، نسعى لإبادتهم ولاقتلاعهم من فلسطين، وبلعبة الموت يمرحون، وكأنّ الموت صديقهم الحميم"! هتافهم يعلو، ضحكاتهم تزغرد، تكاثروا ومن رحم الأرض يخرجون، لم يدرِ من المهزوم، هو أم هم؟ تتصاعد الدماء في عروقه لهاثاً محموماً، تفجّر في داخله النداء الغاضب، وزمجر "شراسة الموت لا تهربي، لقد سرقوا طفولتي، أأنا سجين الحلم وهم أحرار الحقّ" ازداد قهراً وصوّب رشاشه نحوهم، صرخ بحقد دفين: الآن حقّت الإبادة الجماعيّة.

أطلق نيرانه نحو الخشبة وتناثرت طلقات رشاشه لتفجّر الدماء (دم دم ما نهتم، دم دم ما نهتم، الأرض حقهم) ، ماتت الضحكة، هدأت البراءة، وارتسمت بسمة الموت على الشفاه النديّة، وعانقوا الأرض وضمّخوا الأجساد بعبق الترب وليزهر دحنون الشهداء، ركض بهستيريّة: من رحم الأرض يخرجون، في وجه الموت الرفيق بهم يبسمون وبحضن الموت يهجعون، وبكلّ الرضى إليها يعودون، ما نحن إلا شراذمة تحسن صناعة الموت والخراب، نحن الغرباء، الأرض لهم من رحمها يخرجون وإليها يعودون، الأرض لهم.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢ - في بيتي وطن مسروق

جرّافة تسحق حصى التربة فتنثر ذراتها لتمتلئ الصدور برحيق الأرض، عويلها يقتنص القلوب الآمنة، الجند يزرعون بثور الخوف والهلع، الحصار لمنزل يعتلى رابية، هرول أهل البيت لاستطلاع رعب قادم، وزعيق مكبّرات الصوت يأمرهم بمغادرة المنزل فورا، وقفت "أم عامر" بجراءة مستفسرة، ردّوا بعنجهيّة لئيمة: البناء غير قانوني، يجب إخلائه، الوثائق تثبت ملكيتكم لنصف الأرض والنصف الآخر أملاك غائب، فالأرض من حقّ دولة إسرائيل.

علا صوتها من دواخل لاهبة لتؤجّج نبرة حقّ: الأرض لنا وإرث أجدادنا من عمق التاريخ، لقد تكلّف أبو عامر بناء البيت بمرارة غربته في الخليج، وسيحقّق ترضية مع أخيه المهاجر. ضربوا بكلامها عرض شهوة الامتلاك الجائر، اقتحموا أرجائه وأعلن أحدهم بشَرَه المغتصب "البيت مبهر يصلح لسكنى عائلة يهوديّة"، لـم يغيّر نشيج الصغار أو رفض الكبار فكرة الاستيلاء، وبعد حوارات ناقمة انسكبت من فيض الطغيان، فرضوا عليهم الجلاء عن البيت.

استسلمت "أمّ عامر" بوهن للإرادة القمعيّة الكامنة، وغادرته حاملة الضروري من المستلزمات الحياتيّة، ونظراتها تودّع بيتا تماهى سقفه بجمال القرميد الأحمر وجدرانه بالحجر الصخري وحديقة غنّاء تحيط به كسوار سندسي، آملة إلغاء القرار حين وصول الوثائق التي تثبت ملكيتهم للأرض، ضُربت الأسلاك حوله وأنّت الجدران من سياط الظلم، وأجبرت العائلة على الإقامة في خيمة تعصف بها الأنواء ويفصلهم عن بيتهم وادي الرمّان وتلّة الخروب، لوّح "عامر" ابن التاسعة بدمع حزين مودّعاً حلم أبيه الأثير الذي تجرّع لأجله مرارة الحرص والغربة "بيت في وطن محتل"، لكنّه تلاشى تحت جبروت الاحتلال لفقدانه حقوق المواطنة.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

حين يتناغم الحنين في قلب عامر يتسلل لجوار بيته المسلوب خفية ليمتّع ناظريه به ويتمنّى أن يكون عصفوراً يغرّد فوق أغصان حديقته أو مارداً جبّاراً يخلّص الوطن من هذه العصبة الغاشمة لأنّ حبّه للأرض عشق موروث، ظلّ يراقبه بعيداً عن الأسلاك الشائكة والحسرات تعصر قلبه، اغتاظ كثيراً وأراد أن يصرخ لكنّ صوته تعثّر كثيفاً كأنّما يتلاطم من تلك الوديان المخضّبة بالليل الرمادي حين أيقن بوجود سكان من اليهود المهاجرين.

أثناء مراقبته للبيت لاحظ وجود طفلة مقاربة له سناً تلهو في الحديقة، خافت لرؤيته وانطوت داخله، وابتعد لأعلى التلّة، ظلّ يراقبها مع الأيّام لكنّها لم تهرب لرؤيته وألفت وجوده، وجاء صوتها من الهدأة بحوارات طفوليّة تتناغم بينهما عبر الأسلاك الشائكة، وزغردة الضحكات البريئة ترنّ في الأفق، سُرّ عندما سألته بالعربيّة عمّا يريد، فسألها بقهر: من أين جئتم، ولم استوليتم على منزلنا؟

: جئنا من العراق، وهذا بيتنا منحتنا إيّاه دولة إسرائيل.

بتحدٍّ واثق: كلاّ، هذا بيتنا قد عمّره أبي والأرض لأجدادي، لكنّ أبي وعمّي تنازعا على ملكيّته، وسيتراضيان.

وبمكر خفيّ أكّدت: لا، هذا بيتنا، وكلّ ما فيه لنا، وهذه ألعابي.

نظرتها المتشككة دفعته للتبرير بقوة: إنّه بيتنا، في غرفة الجلوس كوفيّة أبي بخيط الأصالة منسوج، وبنادق أهلي على الجدار بحكايا النضال تفوح، وثوب جدتي المعلّق بالعرق الفلاحي مطروز، في الحديقة برتقال يافاوي مزروع وقصّيص زعتر وريحان ومنثور، وفرن تعبق منه رائحة المسخّن وخبز الطابون، في العليّة رحى جدّتي بالخيرات طحون، في الدرج مزمار عمّي بلحن الغربة ينوح ومواويله بالعزّة تفور، ومحراث خالي في القبو يغني موال الأرض في سطور، ومفتاح بيت جدّي العتيق على الجدار بغربتنا ينوء، والبلبل يغرّد على سياجي بشجون ولعبتي التي شاركتني مدارج طفولتي في الركن تنتظرني بهدوء.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

قرّبت ثرثرة الطفولة بينهما، تعطيه الحلوى ويحكي لها قصّة الوطن المغتصب فتغضب أحياناً وأحايين تلقّها الحيرة ساهمة بسلاسل الصمت وتشحذها الأحلام بالأماني المشرقة لتعطي للحياة معنىً، ووعد نفسه "لو عاد إلى أروقة منزله ستظل سالومي الصغيرة صديقة"، ويلقّبها ب "سلمى".

في الصيف اشتدّ الحرّ، وهامت الحشرات وتسلّل عقرب لقدم "سالومي" ليلدغها ويعلو صراخها، احتار عامر ماذا يفعل من أجلها؟ والسلك الشائك يفصل بينهما، أشار لها أن تمدّ ساقها من تحت السلك ليبعد عنها العقرب، لكنّ الصوت الوجيع وصل لوالدها، فصوّب بندقيته نحو عامر وأفرغ طلقاته في صدره ونزفت الدماء، هزم عويلها الثرثرة البريئة، وأدرك أباها بعد فوات الأوان أنّ الصبيّ لم يكن متسبباً في أذيتها، وتمزّق قلب أمّ عامر عند سماع الطلقات وأسرعت نحو البيت، وبكلمات عبريّة تخالطها عربيّة ركيكة ومشاعر باردة سدّدها لأم عامر"آسف لم أقصد قتله" حملته إلى الخيمة والدماء تنزف، همس لها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: أمّي، في بيتي وطن مسروق، بلّغي أبي وعمّي التائهين في غربة الصراع، أن لا يتنازعا على سيادة الأرض، فالبيت لنا بالنضال والحبّ يعود.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٣ - هويّة حروف

الوقت لديها محسوب بدقّة لتختزل مدارات الزمن الفانيّة، فهي تعمل مديرة مدرسة لوكالة الغوث، اشترت حاجتها من الخضار وركبت سيارة أجرة باتجاه منزل أهلها، عبرت السيّارة شارع الآلام، فاضت الذاكرة ببوح وجيع، وهفت روحها لشجرة السرو الباسقة عند المنعطف، كان واقفاً هنا شامخاً بانتظار سيارة التنظيم التي ستوصله لمكتبه لأنّه من أهم كوادر التنظيم، ودّعته بابتسامة دافئة من شرفة شقتهما لتمدّه بالعزيمة والثبات، وطنّت بأذنها هواجس اسرّها مساء" الفساد استهلك الضمائر وإصرارهم يزداد لأتنازل عن مبادئ وطنيّتي، إنّهم يتلاعبون بثوابت القضيّة، هناك شيء ما يُدبّر بالخفاء للتنكيل بي، قلبي يرتجف قلقاً عليك وعلى طفلنا القادم"، ردّت بقوّة "لا تتنازل عن مبادئك، لا أتخيل وطناً مشروخاً، امضِ في الحقِّ ولا تتهاون ولن أرضى أن تصفعنا مَذلاّت التاريخ".

بعد لحظات سمعتْ صوت طلقات خائنة وتقلّبت نفسها بين فضول ورهبة وأطلّتْ من شرفتها لترى سيارة ترميه برصاصات غادرة، دماؤه تنزف تحت الشجرة، لوّح لها، كادت تلقي بنفسها من الشرفة، لكنّه أشار لها أن تهدأ، ونبض ابنهما الهادر في بطنها أوحى لها بالتريّث، تسمّرت في لجّة لوعتها وأيقنت أن قضاء الله لا رادّ له وعليها أن تحافظ على وليده المتجذّر فيها، وقضى شهيداً في سبيل الوطن، وبكته جرحاً نازفاً في الوداع الأخير.

استكانت لفيض ذكريات حميمة من لقائهما الأول في الجامعة الأميركيّة حين خلبت لبّه وانسلّت بعشق سرمدي لكيانه وهي تحاوره بلهجة الجليل الأعلى الفلسطيني، قائلا بانبهار" يروق لي محافظتك على لهجة وطنك الأصيلة ولم تغيّريها للّهجة اللبنانيّة كما فعل الكثير وقد نشأت في بيروت" ردّت بحزم" لن أتنازل عن فلسطينيّتي التي تجذّرت بدمي، فلهجتي هويّتي".

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

صهرتهما فيروز بصوتها الملائكي في بوتقة فلسطين والحبّ حين تغنيّا معا "يا قدس يا مدينة السلام، أنا لا أنساك فلسطين... شايف البحر شو كبير". فيردّ جذلا" أنتِ فلسطين التي أعشقها بجمالها الأخّاذ وأرضها المعطاء، أنتِ اللغة والمفردات والتقاليد، أنتِ وطني الذي أملكه لنناضل ونستردّ وطنا يسكننا ولا نملكه" أيّدت مبادئه وأفكاره في القضيّة وتميّز بقيم إنسانيّة تزخر بأرقى المعاني له دماثة خلق الأتقياء ونبل وكرم النبلاء.

مضت ثلاث سنوات من عمر حبّهما وزواجهما لكنّه حبٌّ للعمر كلّه لأنّه احتلّ مساحات الحبّ في حياتها، بعد اغتياله طلبها الكثير للزواج لمزاياها، لكنّها أبت "لست أرملة لأتزوج فالشهداء أحياء عند ربِّهم يُرزقون، طوى وأوصد الأبواب خلفه، ويستحيل اختراق قلعة لا يسكنها غيره"، كلّما مرّت أمام شجرة السرو تخاله يلوّح لها بدفق حنين ليمدّها بالقوة وابتسامة الشهادة النقيّة تنوّر محيّاه ولا تفارق مخيّلتها، كرّست حياتها لابنهما الذي طرق أبواب الجامعة.

لاحظ السائق اغريراق عينها بالدمع الحزين، وشرود ذاتها للمجهول، وكعادة السائقين الذين يثرثرون عن هموم الغلاء والفساد السياسيّ مع الركاب، ثمّ نظر لأكياسها: كيف أسعار الخضار اليوم؟ ردّت: نار، كلّ شيء غالٍ حتى البَنْدورة الكيلو بثلاثة آلاف، أدرك من لهجتها أنّها فلسطينية، قال بامتعاض: كلّ ما واجهتموه من قتل وقهر وظلم وتقولين بَنْدورة (بتسكين النون) بل قولي بَنَدورة (بفتح النون)، انبرت له بعنفوان سلطتها الإداريّة: سأظل أقول بَنْدورة بلهجتي التي اعتزّ بها ويقولها ولدي وسأوصي بها أحفادي وستقولونها بلهجتنا، لن نذوب في كيان أيّ شعب، فلسطين بالقلب، كيف نحكي بلهجتكم وأنتم منذ خمسين عاماً ترفضون وجودنا وتحاربوننا؟

سكت السائق وابتلع غضبها كي لا تترك السيارة ويخسر أجرة راكب وحاجته ماسّة لكل ليرة لمشوار يوم الأحد الترفيهي، فانبرى أحد الركاب بحكمة: هذه عصبية عمياء تحرق قيم العروبة والإنسانيّة، تختلفون على الفتح والتسكين والسكّين فوق رقابكم والجلاّد واحد يقتنص الأوطان ويزرع الفتن ويغتال حروفكم ومفرداتكم ويبيد القيم والمبادئ والثقافات وو.. يا الله!! متى ننجو من تداعيات الفتن وتحتوينا الصحوة؟ وسكت الجميع درءاً لفتنة البندورة[١].

[١] - فتنة البندورة: كان يُقتل الفلسطيني عند الحواجز بعد أن يُسأل (عن حبّة البندورة) ما هذه؟ إن قال: بَنَدورة (بفتح النون بالفتح وترقيق الواو) نجا وإن لفظها: بنْدورة (بتسكين النون وتفخيم الواو) أزهقت روحه، كانت اللهجة تحدد الهوية، التي ما خمد أوارها إلاّ من بعد ما ذبح الآلاف.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٤ - عاشق لوحة

في مرسمه ريشة تبدع من خيال خصب وفكر ثائر مقهور، في حناياه عشق وطن جريح، ولوحاته تزخر بنفحات موشّاة ترمز للمعاناة التي تستبيح وطنه "دمعة على قبّة الصخرة، وشاح ينزّ بالدماء، عبرات الطفولة المعذّبة تغرق مغارة المهد،..." عدّوا لوحاته إعلانا عن بشاعة ظلمهم ومقاومة فكريّة وتحريضاً رافضا لوجودهم، أسروه وسجنوه سجناً انفرادياً في زنزانة بتهمة حبّ الأرض والصخرة المقدّسة والقباب الحزينة، لم يسمحوا لفكره المقاوم أن يُترجم إلى لوحات تعبّر عن حبّ الوطن ومعاناته.

أنامله تعبث بعشوائيّة واكتنفه هوس الرسم، يريد خلق إبداع ما، رأى في جدار السجن مراحاً ورديّاً لتفعيل إبداع خياله، سُمح له بالرسم شرط أن لا يكون عملاً استفزازيّاً، لا يرسم بيتاً متهدّماً أو طفلاً مطعوناً أو امرأة منتهكة جدائلها، وحكت جُدر زنزانته ألوان ريشته، رسم شاطئاً ثم نخلاً ثم ورداً..، لكنّ الحيرة توهته بمداراتها، يريد استنطاق اللوحات بفكرة يتقبلها، استدعى أحلى أمانيه، وجدها، إنّها فتاة أحلامه لتؤنس وحدته ولتكتمل لديه دورة الحياة.

بدأ الرسم من غور التكوين من العينين، هل يلونها بزرقة البحر، أو سندسيّة السهول العابثة أو صفرة الغروب الحانية! لكنّه مازجهما بأحبّ لون طين الأرض، رسم أنفاً دقيقاً شامخاً، لوّن البشرة بلون غيمة رقيقة تتوارى وراءها أطياف البدر، وغمّازة في الذقن تزيد الجمال سحراً، وشعر أسود مجدول بشوك الظلم والقهر، وشّح ملامحها ببراءة الطفولة وطيبة الأمّهات وعنفوان الأميرات.

اكتملت اللوحة، بدت له جميلة الجميلات، انجذب إليها بتوق مبهم، وجرى عشقها في دمه، نسج لها أجمل الأشعار، تلمّس البهاء في جمالها وهفت روحه إليها، وتمنّى لو يُلقي رأسه على صدرها لينعم بدفء قلبها، ليحكي لها عن

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

وطن جريح هو ملح الكون، لكنّها تقهره بصمتها الحزين، كيف تردّ عليه وألف قيد يلتفّ حولها، خالها تبادله الحبّ، وتساءل، أتستجيب لنداءاته، تمنّى لو تنحدر من عليائها ليعانقها ويتوسّد ذراعها ليمتلأ صدره بعبق العوسج والطيّون الفوّاح، ريشته رسمت القدمين مكبّلة بسلسلة حديديّة، أراد تحريرها من القيد فأدمت قلبه ورغب أن يسدل عليها رداء العزّ والفخار، قد يكون ثوب الزفاف، أتكون عروسه؟ حيرة أذابت نفسه، غبش تماوج في مدى الرؤى، أيّ امرأة هذه؟

العسكري: الأسير "٤٨" أترسم امرأة! رائع، أنت كأيّ عربي مهووس بالنساء.

زعق آخر: هيّا أزلها لا تخربش على الحيطان لتزيد من قذارتها.

بيد مرتجفة وقلب وجيع: دعوني أسترها برداء العزّ والفخار.

قال ثالث بسخرية: هيا افعل، بأيّ رداء ستغطي عريها؟

انغمست ريشته عابثة بالألوان، انساب اللون الأخضر بسندسية الخصب ثم تلاه الأبيض بطهر السلام والأسود بقتامة الظلم وفي الجيد أبرق الأحمر يقطر بدماء الشهداء، أدرك الجندي رمزية الرسم: ماذا هذا الثوب يا أحمق؟ من هذه؟

رد بفخر واعتزاز: إنّها وطني، إنّها فلسطين تتوشّح علمها.

صاح بعدوانيّة: أتتحدّانا، لا تكمل هذا عمل استفزازيّ وإلاّ قتلتك.

علا صراخهم بهستيريّة: توقف، لا تكمل، امحُ الرداء واحرقه.

شرود رماه في التيه، لن يستمع لهذرهم المقيت وانهمك برسم الرداء الغالي لإسداله سترا على حبيبته، عدّوه متمرداً ومخالفاً لشريعة الغاب، أطلقوا النار عليه وعلى الجدار وهوى أرضاً ليدنو من اللّوحة ويلامس خطوط السلسلة الحديديّة وخال العلم يحتويهما بطهر الفداء ودمعها يغسله ويديها تمتدّ إليه لتحتضنه بحرارة لأنّه أراد التلفّع بغلالة وطنه الغالي، فارقته الروح وعيناه تحدّقان في عينين عشق فيهما لون الطيّن وطيوبه، إنّها الحبيبة بل أمّه الأرض وكلتاهما عشقه.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٥ - انحرف الميزان

لملمت قوات العدوّ الغاشمة الرجال من هنا وهناك ومن الأزقّة والميادين العامّة لتمارس أقسى درجات القمع على شعب فلسطين، ولتثبّت قناع العنصريّة على وجهها الكالح لإشباع نهمهم العدواني لفرض قيود الذلّ بالأسر، ليهمن على شعب أعزل وليؤكّد أنّه يهدد أمنهم واستقرارهم وسيظلّ أسير أرضه.

اصطفّ الرجال بنظام تحت وقع الهراوات وجلد السياط وسيل من السباب المهين، جيء بالمقنّع الخائن، مرّ باستعلاء أمام الصفوف ليتحقق من الوجوه بصمت ماكر، رائحة الخيانة النتنة تنبعث منه وشيطان الظلم ينخسه، يحدّق بعينين يتكسّر فيهما موج الدهاء بزرقة واهية، ويشير بيده الملوّثة بقبح الغدر إلى هذا أو ذاك فيُجرّ قسراً إلى زنزانة السيّارة المتمركزة على بعد أمتار، ومن يتجاوز عنه يتنفّس الصعداء كأنّ جبلاً أزيح عن صدره.

تابعت عينا المقنّع إطلاق سهام الغدر على الوجوه المرعوبة، حتى واجهه وتلاقت العيون وامضه بنظرات مراوغة، لم يكن ممكناً أن ينكر أحدهما الآخر، قذفتهما للوجود بروابط الدم والأخوة الأمّ المتّصفة بالكبر والغرور"علياء الأحمد" في تلك اللحظة تاهت العدالة في قيعان الأنانيّة وحديث العيون فجّر ينابيع حقد كامن في جوف السنين، ثارت من عينيّ "رشيد" المستكين انتفاضات عبثيّة كأنّها استغاثات تترنّح في مساحة الألم الدفين عبر عمر مديد.

أكان هدوء "رشيد" طبعا فيه أم ذلّة من قهر الزمان، وألحّت الذكريات عليه، لأنّ أمّه "علياء الأحمد" لم تحبّه، جفّ حنانها ونفرت منه لدكنة لونه واستكانته، وآثرت أخاه الأصغر "وليد" الذي اتّصف بشقاوة وجرأة مميّزة وشعر أشقر وعينين زرقاوين، وهبته دلالها، ورددت على مسمعه "لأجل زرقة عينيك وجرأتك سيتحقق

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

لك ما تريد"، وإن حاول "رشيد" التقرّب إليها تدفعه بقوّة "ابعد عنّي، أبله وأسود" فينكفئ كسيراً هامسا لنفسه "من يطفئ نار الحقد التي أضرمتها في قلبينا وتركتنا لحريقها الموجع، وكلّما استجرتُ بك من قسوة ظلمه تتدثّرين بالصّمتِ المخنوق لأنّي لا أساوي لديك شيئاً ذا قيمة" وأضحى "وليد" الذي لا يُردّ له طلب، أسير شهواته ومستودعاً للّؤم، يقتنص المال بأيّ وسيلة لينفقه على سبل انحرافه وأفرغ محتواه النفسيّ من قيم الإنسانيّة الفاضلة.

انبرى "وليد" المقنّع في الموقف المهيب جلاّداً صلداً، وتقابلا وكأنّ قابيل وهابيل رجعا من نفق الزمن بلحظة تلاشت فيها أواصر الدم، وتماوجت النظرات بينهما في تجبّر وتذلّل، وكأنّ جدار أسقط بينهما مهشمّا الامتدادات الأخويّة، شعر "رشيد" والضنى يجتاح روحه بوهج الدّم يسري بينهما فانبعث الرجاء بقلب ينغل بالبكاء ويستجدي الرحمة "أخي أرجوك تجاوز عنّي، يكفي استيلاؤك على حقّي بحياة عادلة وما سببته من آلام، ارحمني، لا توجّه سبابتك نحوي لترميني في غيابة جبّ، اليوم لن تمرّ سيّارة تلتقطني من نيران حقدك، وستكون سبباً في سلب روحي لأنّي سأقاوم" انغرست نظرات وليد كنصل مسموم بقلب كسير، وفرضت شياطين اللؤم على فكره هدفاً خبيثاً "الآن فرصتي الذهبيّة، وجودك عقبة في حياتي وبموتك سيصبح إرث أبي الوافر ملكي لأنفقه على نزواتي".

في اللحظة الحاسمة سدّد إشارة كطلقة آثمة نحوه تؤكّد أنّ رشيد مخرّب إرهابي، ولم تشفع له أواصر الأخوّة ولا نداءات الرحمة، جرّوه وسط الساحة، وأدرك أنّه مقبل على تعذيب لا يُحتمل فقرّر المقاومة وعدم الاستسلام لمعاناة الأسر، فرّ هارباً من عدوّه، فأطلقوا عليه سيلاً من النيران، ونزفت الدماء الطاهرة فوق التراب كإعصار يزلزل ضمير"وليد" ويصفعه وتراءت صفحات ظلمه، ورنا إليه بإشفاق طالبا السّماح وبكى من حرقة ندم، لكنّه حوّل عنه نظرات مسربلة بغموض آسر وفارقته الروح المقهورة، فصرخ "أمّي حبّك الأناني الظالم قتلنا".

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٦- دعوة للرقص

دفعني الفضول لارتياد حفل زفاف في فندق سبع نجوم لأحد الأثرياء الذين لمعت أسماؤهم في قضايا النّضال الوطني، وسيطروا على خيوط القضيّة. الموقف امتلأ بسيارات "رويز رايز والفراري.." والقاعة خياليّة الزخرف كأنّها من زمن ألف ليلة وليلة، وأناقة الجميلات تلاغي العقول بفساتين ماركاتها عالميّة، والحُليّ تخطف الأبصار ببريقها، والعطور باريسيّة تعبق بالنشوة، وتتباهى المدعوات بمفاتنهن، والنظرات الحسود والتنهيدات الآسرة تزفر بالأجواء.

أطلّت المدعّوة "أمّ المجد" بأناقتها المميّزة، فشهقت "أمّ المنذر" لرؤيتها ونظراتها تثير حقداً دفيناً، واستثارت شظايا الغيبة والنميمة أمام جليستها بإتقان هادف، وتحوّل حديث العيون الحاقد إلى غمز ولمز وانفجر البركان، حوار مشين بكلّ ألفاظ السبّ القبيح، وأتقنتا طقس إشهار الفضائح وتبادل التهم وإفشاء الأسرار المعيبة.

: من أينَ هذا الجاه؟ ألم يكن زوجك مناضلاً برتبة ملازم؟
: كنت تسكنين قبو عمارة، فمن أينَ القصور والسيّارات؟
: ما الفساد الذي اتبعتوه، وكم قبضتم عند توقيع مواثيق التنازل؟
: من باع الأرض واغتنى من صفقات السلاح المشبوه؟

حاول الجميع إصلاح ذات البين وباءت المحاولات بالفشل وتبدّى العنف لاشتباك الأيدي وشدّ الشعر وو..، وتمّ إقرار التهدئة وفكّ الاشتباك من قبل الحضور، ولملمت كلّ منهما ذاتها وأصلحت زينتها، وجلستا على بعد قطبين متنافرتين كذئبتين، ترسل كلّ منهما شواظ حقد القلوب الملتهبة، وأضاءت آلات

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

التصوير لتسجل الذكريات الحلوة للعروس التي تمنّي النفس بأحلام السعادة الزوجيّة، بالختام بُثت أغانٍ من الفلكلور الشعبي "وعل الهوارة الهوارة ودلعونا".

تبارى الجمع في خوض معترك الحلبة رقصاً وتشابكت الأيدي ودقت الأقدام دبكاً حماسيّاً، وجلسوا متهالكين وفرغت الحلبة من روّادها، وانفردت اللدودتان في الحلبة "أمّ المجد" تتقافز يمينها و"أمّ المنذر"يسارها، لتؤدّي كلّ واحدة رقصتها على نغمات "الأرغول وحميّة الدف" ممّا جعل الأقدام تتقارب والضحكات تصدح، تجلجل صوت أمّ المجد الجهوري "والله الدّبكة ما بتحلى إلا بشبك الإيدين، هاتي إيدك يا أمّ المنذر لترندح الدبكة وعل الهوارة"، أذهلت المفارقة الجميع وتساءلوا، هل للرقص سحر لرتق الشقّ وستر ما كشف من مستور!

تأبّط العريس عروسه لمستقبل حالم بالأماني، واتّفقت اللدودتان على القيام برحلة معاً إلى باريس للاطلاع على عرض أزياء مبهر، رمتني صديقتي بنظرة سخط "ما رأيك!" أجبت بقهر"ما أحلى الدبكة وما أعظم أسرارها، مريع ما رأيت، لقد اتّسع الخرق على الراقع وخِلتُ رواد الحفل يسبحون في بركة من دماء أطفال فلسطين ودموع الأرامل وآهات المسنّين، إنّهم يتاجرون بالأوطان ويرقصون على الجراح ويحتارون بهدر الثمن.

❁

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

٧- حكاية الطرح

علاء صبيّ في ربيعه الرابع، هادئ كنسمة فجر، أرسلته أمّه لروضة أطفال بنصف الأجر لسوء أحوال عائلته المادية لعل عبث الطفولة يدبّ فيه ويزيده نشاطاً، أفرحته ألعاب الروضة فطفق يلهو بها بفرح طفولي، وأحبّت المعلّمة سكينته الحانية على وجهه الجميل.

في الأسبوع الأوّل تعلّم العدّ من واحد إلى عشرة، كان منتشياً بإنجازه ويردده كلّما استكان لوحدته حتى تمكّن من مهارة العدّ، فأخذ يمعن في الوجوه ويعدّ "بابا واحد، ماما اثنان، يوسف ثلاثة، وائل أربعة، هشام خمسة، ناصر ستّة، زياد سبعة، وأنا ثمانية"، لجأ لحضن أمّه فرحا بقدراته، مرددا بلثغة محبّبة "أمّاه، نحن ثمانية، ويا ثلام ثح" (يا سلام صح)، ضحكت "إيش يعني ثلام ثح"، ردّ بطلاقة "هيك بتحكي المعلّمة للجواب التحيح"، أشرقت بالسعادة لكلماته العفويّة وتنهّدت "الحمد لله، عوّضني بأكثر مما تمنّيت"، لأنّه أصبح لديها عائلة كبيرة وقد كانت وحيدة يتيمة الأبوين من بقايا أسرة قُضي عليها في مذبحة دير ياسين.

علّمت المعلّمة الجمع لكنّ علاء لم يفهمه، فاستكان في زاوية الصفّ يرقب تماوج التفاعل الصفّي أو يستسلم للأحلام في غفوة، لكنّه تنبّه لعملية الطرح وفهمها لسهولتها، اعتلت نشوة النجاح أساريره، فقصّ على أمّه حكاية الطرح إذ يعدّ من واحد لعشرة ثم يخبّئ واحداً ويعدّ من جديد فتكون النتيجة صحيحة.

ذات أمسية كئيبة ارتطم صوت يوسف بجدر البيت وبنبرة مأساويّة "مات أبي بعد إصابته بذبحة صدريّة؛ لأنّ جنود الاحتلال أغلقوا دكّانه وشمّعوه" صرخت وشقّت الثّوب واحتضنت علاء، نظر لوجهها الباكي وبدأ العدّ، ثم خبّأ والده وقال ببراءة "أمّاه صرنا سبعة" ازدادت عويلا، ومسح دمعة يُتم لو حملتها غيمة لأمطرت.

جلس علاء يوماً على حافّة النافذة عند القضبان الحديديّة، والأحداث في

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

حالة غليان، فإذا بالحشود تتوافد حول المنزل متدافعة، يحملون على الأكتاف جسداً مغطّى بدثار ملون: أحمر، أخضر، أبيض، أسود، حدّق بالوجه "إنّه يوسف" ابتسم بأسىً، عقله الصغير لم يستوعب الموقف، وعبارة "الشهيد حبيب الله" أفهمته طرحاً آخر، وبدأ العدّ، ثم قال"أمّاه، صرنا ستّة" وانهمرت منه دمعة دامية فأخصبت الأرض شقائق نعمان ووشّت المدى بحُمرةٍ قانية.

وقف يوما مذهولاً على عتبة الباب من حدّة الصراع الدائر بين وائل وأمّه وهما يتجاذبان حقيبة سفر، أمرته أمّه بحزم "لن تهاجر" ردّ متوسّلاً "بل سأهاجر، لن أتسوّل في وطني المحتل، لن أموت جوعا، اتركيني، سأرسل لك أموالاً كثيرةً، الباخرة ستقلع، هاتي الحقيبة" انتزع الحقيبة بقوّة واتجه نحو الباب وطبع على خدّ علاء قبلات حميمة وطوى للمجهول، اقتعدت العتبة وشهقت بالبكاء، أدرك علاء أنّ الحقيبة طرح آخر، وأخذ يعدّ، وهمس لها "صرنا خمسة" فانتهرته، "اصمت، لا أريد سماع حكاية طرحك البغيض".

أطلّ الشتاء بقسوة برده راسما عفن الرطوبة على سقفه، التفّت العائلة حول طبليّة العشاء لتعزف لحنا من صخب الملاعق وكهوف أفواه جائعة، وتمازج رذاذ كانون راشقا النافذة وإيقاع دندنات علاء وزياد الطفوليّة في حنايا البيت، وإذ بطرقات مدويّة عاتية لئيمة تخلع الباب، دلفت زمرة من جنود الاحتلال ليعتقلوا هشاماً وناصراً لأنّهما من فتيان الانتفاضة، صاحت ونخر عويلها الآذان، تجمهر الجيران لترديد عبارات التصبير، قبع علاء في الركن يرقب الهجمة، عمليّة الطرح صعبة على قدراته العقليّة، نفّذها على مرحلتين، وقال لها "أمّاه صرنا ثلاثة" وألقى رأسه خائراً في حضنها ليغالب موجات انكسار ووحدة، ساهماً كزورق تتقاذفه الأمواج، لا يفهم الطرح البغيض، ليته تعلم الجمع قد تكون له إضاءات محبّبة.

انطفأت إشراقة الفرح عن وجهه وحلّت الكآبة على الروح اليتيمة، حقد على عمليّات الطرح التي تزداد سهولة وقهراً، مرّت الشهور والمرح يغالبه في لعبه مع أخيه المقارب له في السّن ثمّ اعتلت صفرة مقيتة وجه "زياد" وأتلفت السحايا

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

دماغه الصغير وجرّته إلى حفرة الموت، صرخ علاء ممزّقاً غلاف الحزن الملتف حوله ومسح دمعة حزن لو تركها لصارت إعصاراً عاتياً مدمّراً، نظر لأصابع يده بحرقة متمتما "صرنا اثنين" أطلقت أمّه تنهيدة وجيعة واستنفرتْ ذاكرة معفّرة بعذاب القهر ومسكونة بالأسى، وحدّقت بحقد دفين في أرجاء المنزل تريد عمل شيء لتفريغ شحنات القهر تسكن أعماقها السحيقة، وركّزت بصرها على سكّين المطبخ المعلّقة في مشكّ الأواني تذكّرت جنديّ الحراسة الإسرائيليّ الذي يقف عند مدخل الحيّ تناولت السكّين وربطتها لساقها.

حملت بضاعتها وهمّت بالخروج، إلّا أنّ علاء شدّ طرف ثوبها باكيا "أتتركيني وحيدا!" نظرت بإشفاق "بإذن الله سأعود، انتظر أوبتها قبيل الغروب، لم تعد، جلس عند النافذة وجلاً من شيء ما، ومراقباً أفول الشمس الأخير لبيته، وصلت للمكان جرّافة، خالها ملعقة الغول التي تتصدّر حكايات أمّه وتلتهم كلّ شيء، دقّق النظر، لكنّها جرّافة، جاءه صوت الجنديّ آمراً "اخرج ولد" ردّ بغصّة "أمّي ليست هنا!" انتهره الجنديّ "إذهب لأمّك المتكوّمة هناك كجيفة!" لم يفهم، خرج حافياً مهرولاً متعثّراً ماسحاً دمعه بطرف كمّه.

جلس على حافّة الرصيف المواجه للمنزل وابتلعت "ملعقة الغول" كلّ شيء وتركت البيت كومة حجارة وأثراً بعد عين وانسحبت مزمجرة، تسلّق علاء حجارة البيت المهدّم وقعد فوق أكبر حجر، وسمع النسوة تحكي "مسكينة أم يوسف، قتلت بعد أن أقدمت على طعن جندي"، جرى دمعه بغزارة مطر سماء متلبّدة بالغيوم، القتل طرح، ورفع أصبعه عالياً "أنا بث"، التقط قطعة خبز رماها صهيوني على الأرض والتهمها بنهم وسار على غير هدىً، وشوهد بعد مدّة قصيرة ملقىً على الأرض مستسلماً للموت بعد أن أصيب بطلق ناري وغارساً أصبعيّ كفه الذين يمثلان علامة النصر في الرمال، وبسمة ساخرة على شفتيه "ليه السلام صح".

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٨- دثار أمّي

ما تخيّلت أن يطويها العجز تحت مظلّته والسنون تعبر بها إلى برّ الشيخوخة، وتلقي عصا ترحالها على أحد أسرّة مشفى الجامعة الأميركيّة في بيروت، لأنّها تعاني من وهن القلب وانسداد الشرايين، الذكريات عنها متداخلة ومحتشدة في رأسي ما رأيتها إلّا مثل سنديانة صلبة لا تنحني لنوائب الدهر، متّصفة بالعزّة والإباء، عطاء أمومتها تجاوز حدود العائلة وامتدّ لمن حولها ومتغافلة عن احتياجات ذاتها.

في طفولتها تحدّت اليتم واللجوء القسري من الوطن وواجهت بشجاعة عاديات الزمن، في حرب الاجتياح كانت السبّاقة لتقديم الطعام للمقاتلين، تضع كميّة كبيرة من الفطائر في طريقهم ومرددة "إنّهم يمرّون من هنا، ليحاربوا عدوّاً لئيماً في الجنوب، إنّهم مغتربون عن أمّهاتهم، وينادونني "يمّا" وخبز الأمّهات ممزوج بنكهة حنان" ويذهلني مشوارها عصراً باتجاه المقبرة، وتحكي بحزن دفين "هم أكلوا فطائري صباحاً قبل مواجهة اليهود والكثير منهم يُدفن الآن، سأبكي عليهم وأدعو لهم بالرحمة، إنّهم شهداء".

أسألها محتدّة "أتعرفينهم!" تردّ متذمّرة "كلماتك ثقيلة، كلّنا لاجئون لم نعد أغراباً، صلة اللجوء كالأخوة يجب أن تبقى متينة، إنّهم أبناؤنا، جاؤوا ليدافعوا عنّا وعن القضيّة، قد لا يصل خبر استشهادهم لأمّهاتهم، والشهيد يعشق زغرودة الشهادة ودمعة الفراق ليرتاح في قبره، وغداً سأزور المشفى لأساعد جرحاهم".

عطاؤها سامق وقلبها بحجم الكون حبّاً، اليوم هي رهينة المرض والشيخوخة و تُجرى لها الآن عمليّة قسطرة قلبيّة، أُخرجت من غرفة العمليات وتعليمات الطبيب المشدّدة "الحركة ممنوعة لعشر ساعات" وعليها استدعاء الممرضة كلّما

أرادت قضاء الحاجة، نظرت إليّ وهي تلوّح رافضة، فهمت ما تريد "سأقوم بهذا، لأنّ هذا الموقف يحرجك". قمت بالمهمّة وكلّ مرة تعتذر " ابنتي سامحيني، أهنتُك" فأعاتبها "أنت أمّي، إن لم أقم على خدمتك من يفعل ذلك!"، كلّما غفوت لحظة تناديني لقضاء حاجتها، المهمّة شاقّة ليلاً وتأفّفت لأنّ سلطان النّوم يثقل وقعه عليّ ويلاحقني الضجر بسوطه، وأخذني الوسن عميقاً للصباح عندما لامستني نسمات البرد مع هطول المطر.

صحوت صباحا وعلى صدري دثارها الصوفي، عصف بي القلق فسألتها "من غطّاني بالدّثار!" ردّت بتحنان "رأيتك ترتجفين بردا فاتّكأت على عصاي وأسدلت عليك شالي الصوفي" التفتّ لموضع العمليّة إذ به ينزف، فاستدعيت الطبيب الذي أغضبته حركتها الخطرة وعالج النزف، نظرت لبحر الحبّ في عينيها "لِمَ تحرّكتِ كدت تموتين، البرد لن يؤذيني" احتضنتني بنظرة عتاب، وتدفقت دموعي الكامنة مثل شلاّل آتٍ من أزمنة سحيقة وجلدني الندم، كيف تذمّرت من خدمتها ليلة واحدة وخاطرت بحياتها كي لا يلامسني برد الخريف، وهي التي أفنت عمرها من أجلنا! ودفع النشيج خطوي المترنّح وانحنيت على قدمها فقبّلتها طالبة السماح؟

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٩ - قضيّة إهمال

أشرقت ملامحها بالومضات الإيمانيّة بعد أدائها لفريضة الحجِّ التي تمنّت أن تؤديها منذ ثلاثين عاماً وحمدت الله الذي حقّق أمنيتها قبل موافاة الأجل، استقبلت المهنّئين ووزّعت عليهم السبح والسجاجيد، وسردت نفحات الرحلة الإيمانيّة التي طهّرت النفس من المعاصي، وصهرتها في بوتقة الإيمان والطاعة.

أعادت مقتنيات الرحلة لخزانتها التي كلح خشبها وأزالت عاديات الزمن ملامحها، المقتنيات تطالعها بدون ترتيب، المفتاح الكبير الحديدي لبيتها في الوطن السليب، بعض الدنانير التي قد تكفيها مؤونة أسبوع، ورفيق الشيخوخة (كيس الدواء) بكلِّ مكوناته من أدوية السكّر والضغط وو..، ثمّ تتابعت الوثائق المهمّة، لكنّ جواز السفر الذي يعطي اعترافاً لكيانها اختفى، لقد تكلّفت الجهد والمال للحصول عليه، بحثت في كلّ مكونات الغرفة البسيطة، فلا أثر له، وبعد التقصّي والسؤال وصلت إلى نتيجة مؤلمة، الجواز سقط منها سهواً بعد اجتيازها حدود الأردن، ولا تدري أين! فسلّمت بفقدانه، ضاربة كفّاً بكفٍّ، ووقعت في تيه وجودي، هوّن معارفها عليها الأمر، لأنّه يمكن الحصول على بدل فاقد، جهّزت متطلبات المهمّة الجديدة.

في مكتب الأحوال المدنية وقفت في طابور طويل وآلام المفاصل تناورها، دفعت رسوم الطلب على مضض لأنّه ثمن طعامها اليومي، لكنّ القانون لا يميّز بين الفقير والغني، طلب الموظف المسؤول منها دفع غرامة فقدان الجواز، تثاقلت في مشيتها والتحقت بطابور آخر، وسألها الموظف كآلة مبرمجة "ما سبب فقدان الجواز هل سُرق أم حُرق أم بِعته؟" ردّت مستنكرة للأسباب، ودمعها يحرّق وجنتيها "لا أعرف كيف اختفى؟" كتب السبب "الإهمال" والغرامة خمسون ديناراً.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

سال خطّ عرق على صدغيها وتناثرت كلماتها بلا ترتيب، وفتحت كيساً معلّقاً في رقبتها "أنا لست مهملة، هذا "كوشان" أرضنا في فلسطين، وهذا مفتاح داري في القدس -إن شاء الله بالعودة- هذه بطاقة المؤن التي تثبت أنّي لاجئة، أنا حريصة عليهم كحرصي على حياتي منذ خمسة وستين عاماً، كيف لا أحافظ على جواز سفري الذي يعترف بآدميتي، وسهّل لي أداء فريضة الحج، وآمل أن ييسّر لي زيارة الأقصى، أكاد أتفجّر قهراً، من أين؟ معي خمسون ديناراً خبّأتها لجنازتي، أأدفعها غرامة للجواز أم أتركها لتجهيزات جنازتي؟؟

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

١٠ - تفجّر البركان

اعتلى سطح منزله مستشرفاً الطاحونة الانتفاضيّة، الصِبية تتراكض فرادى وجماعات وراء حجارتهم الصادحة بلهيب التحدّي، تعبير فطري عن الظلم، عيناه ترمي سهام شرر نحو الأزقّة التي تقذف بقرف جنود الاحتلال بأورامهم المدجّجة بالسلاح، وتبتلع الفتية بحنو، البركان يغلي بداخله ليفتت حجارة طرف السور بيديه قهرا، دخل منزله الذي حفر الفقر على جدرانه رموزاً أزليّة، تسلل لركنه الذي آثره كي لا يتعثّر إخوته الصغار بساقيه ليلاً، ويلجأ إليه نهارا كلّما حاصرته الهموم ليترك رأسه مسرحاً لتفعيل الأفكار أو للمطالعة فوق صندوق، وإن داعبه النومُ يركنه جانباً مستسلما لسلطانه.

في الصباح تدعوه أمّه لشرب الشاي مع فتّة خبز، نظراته تناجيها بحبّ وتغرقه بدفق أمواج حنان عينيها اللوزيّتين، حملته الرؤى لساحة البلدة حيث زلزلت نداءات الأجواء صخب البطولة وراقصت الحجارة على أسنّة الغضب، يريد إخماد بركانه الداخلي لأنّ رغبة الشهادة تطوي كلّ الأحلام وتتصدرها، ونداء الأعماق يحثّه "متى ستنفّذ العمليّة الاستشهاديّة لتلتحق بقوافل الشهداء؟".

ارتدى زيّه المرقّم (٦٧) وتوجّه لعمله في المستوطنة، مدير المصنع الإسرائيليّ يمتدحه بلؤم "العامل (٦٧) "بيرفكت" مؤدّب، هادئ، لا يثور ولا يغضب، لا مخالفات قانونيّة عليه أو وطنيّة أو سلوكيّة" فيرشقه بنظرة وعيد وتهديد، والبركان يصدّع الأركان.

قبض الراتب بفرح واشترى القماش الأبيض وعصبة الرأس الخضراء والعلم الذي سيدثّره بعزّة وإباء وسلّمهم للجهة المخططة، الجدّة تمتدح "الكفن الهانئ من عرق الجبين" ودّعت نظراته المكان والأشياء والأخوة، وتاه في ينبوع عينيها الحائرتين وأشفق عليهما من قسوة حزن قادم، سألته قلقة "ما بك، أتريد شيئا أو

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

عندك مشكلة؟ هزّ رأسه بالنفي، احتضن نظراتها الحانية ورحل إلى أمنيته، هو يدرك سبب شغفها به لأنّه بكرها وشبيه أخيها الشهيد، تجاهل حيرتها، وتراءت صور الحسرات التي ستغرق وجهها الذي لن تتوجه الإشراقات بعد أن يعتلي الأكتاف ويغيّبه الردى، ابتلع كلماته " سامحيني، لأنّي سأصدّع قلبك، كوني فخورة يا أمّ الشهيد البطل".

طرقات تضجّ على الباب، صريره يئنّ، همسات سريعة تتردد على شفاه وجلة، تعليمات، أوامر، استجابات! حانت ساعة الصفر، ارتدّت نظراته للداخل وقبّلت الجميع، دمعه يحرق جفنيه، تهافتت حروفها بمرارة علقم "ولدي قلبي يتمزّق لأجلك، هل هناك أمر عصيب؟" خرج مسرعاً، وتبعته للباب باكية" ارجع، إلى أين؟" نظرة وداع أبكتها "دعاؤك ورضاك" ابتهلت بخشوع "الله يرضى عليك وييسّر لك سبل الخير وطاعة الرحمن"، في اليوم التالي تناقلت الإذاعات الفضائيّة خبراً عاجلاً "وقعت عمليّة استشهاديّة في مصنع ... وتناثرت على أثرها الأشلاء وارتفع عدد القتلى والجرحى..."، همد البركان واستلمت رسالة "هديّتي إليك يا أمي، شهادة في سبيل الله ونفحة نورانيّة لتحرير الوطن، اقبليها"، حفر الدمع أخاديد أسى على وجهها الحبيب.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

١١ - الوجه الآخر للثورة

حاولت الخروج من حالة الحزن التي هيمنت عليّ بعد وفاة أبي، فلجأت للكتاب الذي لا يملّ رفقتي، لكنّ الملل لم يبارحني، قلّبت القنوات لعلّي أجد ما يزيل وطأة ضجري، متجنّبة المحطات الإخباريّة وجدليّة السياسة التي تخفي عفنا يهوي بنا للخديعة ويؤدي لحروب تزهق أرواحا بريئة لأجل المصالح الذاتيّة، أعلن عن مقابلة مع أحد الذين يتقنون لعبة السياسة، أردت تبديلها، لكنّ المبدّل وقع منّي وبدأت المقابلة، ذُهلت لصورته التي حفرت بوشم من نار في ذاكرتي، صعقتني أناقته المستوردة وتصريحاته المواربة، وتراءت لي الذكرى الأليمة حين كنت بالعاشرة وملاصقة لأمّي خوفا، القذائف تنصبُّ من شرقي المدينة على غربها، العمارات تتهاوى، أشلاء تتناثر صراخ وعويل وموت، هروب بكلّ اتجاه.

كان أبي لا يتنقّل إلا وكلّ أفراد أسرته تحت جناحيه، صعدنا حافلتنا الصغيرة كي لا نتوه في شتات جديد، فتصدّى لنا فدائيّ ولمز بلؤم "لمن الحافلة، هل استوليت عليها، نريدها فالتنظيم يحتاجها لنقل أفراده وعتاده" ردّ أبي بإباء "وثيقة ملكيّتها لمتجرنا، نحن لا نرضى حراما، وأنت محق في شكك فالسرقة شائعة زمن الحرب" انبرى له أخي "عائلتنا أحقّ من التنظيم بالنجاة من القصف" هاجمه بجسارة "تخاذلك خيانة في حق القضية وكأنّك لا تنتمي لفلسطين!" ردّ أخي ثائراً "فلسطين وترابها على رأسي، هذه حرب أهليّة لا ناقة لفلسطين فيها ولا جمل ونحن أحقّ بالهروب من هذا الجحيم"، احتدّ النقاش وتحوّل إلى عراك وثار غاضبا فصوّب سلاحه نحوهما لقتلهما، اضطربت أمّي خوفاً ووثبت مثل لبؤة وأطبقت ذراعيها حوله مع سلاحه ككمّاشة فولاذية صائحة "اهربوا" فانطلقا كريح، وتملّص منها بصعوبة ورماها أرضاً، ومطلق النار على قدمها وصوّب غضبه نحو الحافلة مفرغاً فيها رصاصه، فتحوّلت لكتلة لهب، صاحت "الحافلة فداء لهم" وهدد متوعدا بحقد "الحساب لم ينته بعد" واختفى عن الأنظار افترقنا هربا لمناطق آمنة،

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

ولا يدري أحدنا لأيّ مكان لجأ الآخر.

توقّف القصف ورجعنا لبيتنا الذي سرقت منه أبوابه وبدا قاعاً صفصفاً، وكذلك سرقت بضاعة المحل التجاريّ والمستودع، زمجر أخي غاضباً " ابن الكلب، نفّذ تهديده، سأشكوه لرؤسائه" ردّ أبي بأسى "لن يكونوا أفضل منه، لأنّه كما تكونوا يولّى عليكم، الحمد لله أنّكم بخير، وعوضنا على الله" وحزن على أشجار حديقتنا المُتلفة خاصّة هدية ابن عمّه من الجليل الأعلى قائلا "هاي التينة من ريحة بلادنا ازرعها في بيتكم" وبكى أخي الصغير أسماكه المسروقة من البركة.

عاد المسلح بوقاحة لئيمة "أتشتري بضاعتك بنصف الثمن؟ ردَّ أبي برضىً"لن اشتري بضاعة مسروقة، ولن أتاجر بالحرام، وهل هدأت نفسك بعد انتقامك؟ غادر مخذولاً. عصفت بي الأسئلة، هل وصل لمنصبه بأسلوب حرق الحافلة والبضاعة المسروقة؟ أيكون موضوع المقابلة للترويج لمقايضة خادعة؟ هل ما زال هدفه استرجاع الوطن السليب أم بيع القضية لأغراض شخصيّة؟ أتخبو آمالنا بتحرير وطننا لأنّه عيّنة من مناضليه؟ وأملنا كبير بتحرير وطننا على أيدي الشرفاء.

❁

١٢ - ثمن الفداء

ركنوا في مخبئهم يخطِّطون ملاحم بطولة لتحرير وطن يئنُّ تحت احتلال لئيم ويطاردهم لتدمير وجودهم وإزالة الأدلَّة التي تثبت شرعيتهم في أرضهم، ولتكريس هدف هرتزل "إنشاء وطن قوميّ لليهود" واستهدف شعبهم للقضاء على حضارته العريقة، كما طمَسَ هولاكو أحبار أجيال في نهر دجلة لمحو حضارة العباسيّين.

الارتطام المباغت لدويّ البنادق يتهاوى ممزقاً سكينة المكان، فرّوا من وجه الموت وتدافعوا كموج البحر، الأصوات ترتجّ بلهفة "انتبهوا، يريدون الحُسيني" رفعوا جاهزيّة الحصار واشتدّت المناورة لتجسيد الإرادة القمعيّة الكامنة فيهم، وحلّقت الطوّافات الجويّة لتذر الرمال في العيون فيتدافعوا تحت شباك ألقيت عليهم وهشّمت الامتدادات بينهم، وتقلّبوا كفئران في مصيدة، المكبرات تردد "الحسيني بينكم سلّموه أو دلّوا عليه، نعفو عنكم" ردّوا بحماس "كلّنا حُسيني"،كلمات لئيمة تفجّرت "اخرس إرهابي، سنأسر الجميع، أين الحسيني؟"

جاءت من بعيد تتعثّر بثوبها، ونداء يغلّفه النواح "يمّا، يا حُسيني، سمّعني صوتك اللي ما سمعته من زمان، بدّي أضمّك وأشمّك" وعبّت نسائم محمّلة بأنفاسه، الدمع أغبش العيون، زعق إسرائيليّ "أنت تعرف مخرّب حُسيني!" بكلمات مخنوقة "كيف لا أعرف فلذة كبدي" أمسك ذراعها بقسوة "هو معهم في الشبك، دلّي عليه، رح نحكي معاه ويروّح"، تنادوا "كلّنا حُسيني لا تصدّقي افتراءهم سيقتلوه"، التفتتْ للعصبة "دعوني اقترب منهم لعلّي أتحقّق من وجوده".

توسّطت جماعة الأسرى ونظراتها تجوب باحثة عنه، وأنصتت للعتم الحائر في ذاتها، رأته واغترفت شوقا من عينين يتكسّر فيهما موج الحنين، وتساقطت النداءات "أماه، أرجوكِ لا تلتفتي للحُسيني سيعتقلونه ويعذبونه ثـمّ يقتلونه،لأنّه

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

المخطط لعمليّات المقاومة، إنّهم مثقلون بنهم الفتك بنا ولن يرحمونا، السجن سيجفّف عروقنا"، توّهتها الحيرة وردّت بندهة مكبوتة "لكنّهم أعطوني الأمان" قال أحدهم "لا أمان لمن يسرق الأوطان ويقتل الإنسان" واتتها فكرة "لا تخافوا، سأفعل ما يرضيكم، ويرضي الحُسيني" لفّته بنظرة محابية خوفاً أن يعرفوه، وانسحبت، وتخيّلتْ ما سيكون كشريحة فيلم يحرقها الضوء، فالمهمّة مضنية، سألها الإسرائيليّ نافثا سمّه "لقيت حسيني بينهم"،ردّت بإصرار"نعم، لقد رأيته في الشّبّاك وأبلغني رفاقه أنّه سيستسلم إن إطلقتم سراح رفاقه، ولدي صادق الوعد".

انبرى أحدهم "نحن لا نثق إلاّ بأنفسنا وبإرادتنا ولا يُشترط علينا"، تشاوروا ووافقوا لأنّهم يريدون الذي أرّقهم وأرهبهم بخططه، رفعوا الشِبَاك، هتفت لهم "انطلقوا يا أبنائي لأمهاتكم"،ظلَّ الحسيني صامداً كسنديانة شامخة، اقتربوا منه بكامل عتادهم، دنت منه ولم يخذلها الصبر معلنة "خدعتكم، هذا ليس ولدي، الحسينيّ فرّ مع أصحابه" استشاطوا منها غيظاً وأطلقوا النار عليهما، لفظت أنفاسها هامسة له "ولدي هذا سبيل الشهادة الذي اخترتُه معك" حدّق فيهم بتحدٍّ وأسلم الروح، اقترب جندي وقرأ الهُويّة وتبيّن أنّه الحسيني، لقد خدعتهم العجوز حين فكّت أسرهم واختارت الموت مع ابنها ولم ترضَ له بالذلّ وعذاب الأسر.

❁

١٣ - حمل سفاح

كلّما التقينا في الرواق ألحظ حذره من مواجهتي، أجافيه ويلفحني نفوره وأحسّ بوهج الكراهية يسري بيننا وتلاشي الألفة في غيابات الحقد، وتَسقط سهواً لمحة رجاء من عجرفته لتستجدي عطفي، لكنّي أتجاهله، يعطيني آلاف الدنانير فآخذ ما يسدّ أدنى احتياجاتي الأسريّة، محتجّة أنّ ماله حرام، هو مجفف بكبرياء ومتشكك بأصله كمحقق أسطوري، فاض حقدي عن احتمالي فعزمت أمراً، فتقرّبت منه لأعيد جسور الثقة ليطمئن لي، أدهشه الزخم الهائل من ملاطفتي، فبررت له أن حاجتي للمال غيّرتني، ودعوته تحبّباً مع أصدقائه السفلة لوليمة فاخرة، وعزمت على قتله ولم أنسَ سمّ القوارض الذي وضعته لهم بالطعام.

عزفت السكاكين والشوك لحن عشاء جنائزي، ناوشته الهواجس، نظر بدهاء "أمّاه، لم لا تشاركينا وأخوتي العشاء" اضطربت "حتى لا نعكّر صفو ضيوفك" دندنت شياطينه لحن الشّك، نظر بصرامة آمراً "يجب أن تأكلوا معي" همست مذعورة" أخوتك، لا،لا" ثار غاضبا "أيوجد في الطعام شيء" تلعثمت حروفي وأسقطني الخذلان في أتون الحيرة وتقلّبت بين الإصرار والتخاذل، حاولت تبرير رفضي"قد يأكلون بنهم نظراً لجوعهم الأزلي". أصاب أمومتي شلل وتلاحقت أنفاسي، صمدت روحي بوجه الموت الذي سيغتال أولادي بيدي، ردّ بصرامة "لا عليك من ضيوفي" أمرتهم مشفقة " تعشّوا، لكنّ أخاك فارس مريض لن يأكل".

عادت الطمأنينة إليه، تلمظت الطعام المسموم بذائقة اشتهاء، وصور حقدي تتوالى مذ كان نطفة في رحمي حتى أصبح رجلاً خرافيّ الثراء والآثام، وسؤالي يخترقه "من أين؟" يردّ بكبر"من الأعمال الحرة" لم يكن يوماً ذا مال ولا إرث، والأدلّة تؤكّد أنّ أمواله حرام، لأنّ مكاسبه وافرة بلا مزايا مهنيّة، أعماله هيمنت على السوق الاقتصادية العالمية لتحقيق السيطرة السياسية على العالم، بنى أبراجا

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com
PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

في الصحراء، ساهم بكلّ ثقافة تدعو للتحرر من قيود الدين والأخلاق، روّج لأنواع الكيف التي تُلغي العقول وتجلب السرور، متجاهلاً الفضيلة ومدافعاً عن الرذيلة، وزرع الفتن بين من تجمعهم روابط الدم والعرق والدين، سرّب السلاح في صفقات مشبوهة.

لم أعد احتمل وطأة الكراهيّة حين أستمع لآرائه وأعلم بفساد أعماله، وقد تداخلت الأنا فيه لتكون قاسية الخواء، ويجتاحني الضنى حين أصفعه "أنت ابن زنا!" فيردّ مستاء: أليس غريباً أن تعلن أمي أني "ابن زنا"، حدثته بروح مفعمة بالأسى: حاولت إجهاضك جنيناً، ووأدك في المهد، لكن رقة قلبي خذلتني.

: أمّي، لم الحقد، ألم أكن ماثلاً مثولاً صارخاً في صخب عمرك.

: رغماً عني التصقت بأحشائي وكأنك نصل انغرس بأعماقي.

: ليس مهمّاً ابن من أكون، لكنّ دمك يجري في شراييني.

: ما قدرت سبر غور جشعك وشغفك للحياة، وصبغة خباثة دمك، خططت لكسب الأموال بأيّ وسيلة، لا يروق لك إلا صحبة رفقاء السوء متلفعاً بتخف مفضوح، عنّفتك وضربتك، أتذكر يوم حرّقت أصابعك حتى لا تمتد للحرام، وحرقت مؤخرتك بقضيب الشواء، كبرت على سلوكيات النصب والاحتيال كأخطبوط ينتقي ضحاياه ليتلف بأذرعه حولهم، يئست من صلاحك، ورأيتك رجلا بألف لون ومارداً سوّد زماني، لك مكر ثعلب وشراسة ذئب، مدخراتك من جنى الربا ملأت البنوك، سطوتك مخيفة، وكأنّك تتحكم بأنفاسهم، أفسدت العقول بثقافة العولمة، دمّرت القيم النبيلة باسم الحضارة لتحقيق مصالحك.

قال مستخفا: لن أدعك تنالين مني وتهديداتك لن تفلح شيئاً.

رددتُ بارتياح: بل اليوم فلحت ولن أدعك تعيث في الدنيا فساداً.

اعتلى الاصفرار وجهه ويده على بطنه: أيوجد في الطعام شيء؟

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

غامت رؤاي وأمسكت به: سمّ قاتل لن يمهلنا إلاّ قليلاً، خذني إلى غرفتي لنموت بسلام وستعرف سرّ حقدي عليك.

: أتقتلين بهذا الحقد كلّ أفراد عائلتنا من أجل المال الحرام!

جثا عند سريري ليعاني معي آلام النهاية وباستسلام مريح اندفعت أقص عليه حكايتي معه: الطلقات مدويّة بكلّ مكان، وأخبار القتل والتعذيب والتهجير القسريّ تتناقلها الألسن، مذبحة دير ياسين أرغمت الجميع على الهروب، ففررت مع عائلتي تحت وطأة الرعب، أسرعنا الخطى نحو الحدود الشمالية، كنا كفئران تسرع بالدروب خوفاً من أن يطأنا العدو بدباباته، وأجرّ زوجي الذي يمشي متثاقلاً من المرض وإخوتك الصغار، سكنّا خياما انتصبت في وجه الريح وتجاه سمت الشمس، استسلم الأطفال لجوف النوم. قمت للصرّة الكبيرة التي استوعبت حاجاتنا، تفقدت الأغراض لكنّ صرّة المصاغ التي حشرتها غير موجودة، أين هي؟

تذكرت صوت رنّة شيء وقع في أرضيّة الغرفة، إنها صرّة الذهب، طاقية العرس والأساور والمخمسة وو..، حرصت عليهم لإعانتنا على قسوة زمن قادم، هززت زوجي بهلع وأخبرته بالمصيبة، ابتسم ساخراً "لا شيء أسوأ مما نحن فيه، خسرنا كلّ شيء وأصبحنا في العراء، اهدئي" تملّكني يقين أنّها ما زالت موجودة في المنزل، فصممت على إحضارها، صفعني بنظرة خوف كامن وحذّرني من أخطار الطريق: اليهود، الذئاب، الطلقات الناريّة، الضباع. لم استمع لهدير نداءاته "نحن نحتاجك"، لكنّ ذاتي عصيّة التقبّل "بدون الذهب سنموت جوعاً" انطلقت متعثّرة الخطى كقط يهرول بين الأدغال وكأنّي أحفظ الدرب عن ظهر قلب، مشيت وجلة على هدي خطوط الضوء المتسربة من بين جذوع الأشجار، وانتابني إجهاد فقعدت على حجر، وتابعت بين المواقع العسكرية لتخطّي الحدود المرسومة بخطوط وهمية، ورأيت قلوباً مفجوعة بالفقد وقبوراً يهجع فيها موت المذبوحين بسطوة الظلم، وخلت الوجود بمنتصف الخط الرهيف بين الحياة والموت.

تسرّبت للمنزل بكلّ سريّة وريبة، رأيت صرة الذهب ببريقها قرب السرير،

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

وكأننا على موعد، احتضنتها، أردت الخروج، لكنّي سمعت وقع أقدام ثقيلة أخفيت الصرّة تحت السرير ولبدت كقطة متوحشة في الزاوية، كانوا ثلاثة من الهاجانا، دوّختهم حرب الإبادة لشعب أعزل، الحجرة عارية إلا من عبق أنثى، وتحت تهديد السلاح لم أقاوم وسلّمت لهم جسداً واهناً فرووا عطش شبقهم، فالشرف والعفة لا صوت لهما في ضميري الآن، فالحياة ضرورة لأجل أطفالي والزوج العليل، تركوني وحمدت الله لأنّهم لم يفرغوا حقد بنادقهم في جسدي، حملت الصرّة وطويت الأرض ليجرجر الدرب أسراري السحيقة في طريق العودة، والفعل القسريّ المشين سرّي.

مرّت الأيام وزوجي يفترسه المرض والقهر، وأقوم بما تيسر من مقومات الحياة البسيطة في الخيمة الواهية، لكنّي لاحظت امتلاء جسدي، واستبعدت السمنة، لأنّي بالكاد أسد جوعي، أدركت بفطرتي ما حدث، خرجت للخلاء لحمل الحجارة الثقيلة لأهتك بها الكتلة الحرام التي تنمو بأحشائي رغماً عني.

أسدلت ثوباً واسعاً بخفّة غيمة على جسدي المرتعش بنفحة حياة وغدا وجودك حتميّا، اندسست بفراش الزوجية لأوثق معاشرة واهية، لكنّ المرض افترس كلّ شيء، ومرّت الأيام ونظراته السقيمة حيرى تتمركز على البطن المنتفخ، أصابته رعشة كمن تحزّ عنقه، إنّه الحمل السفاح، وتلاشى إدراكه لذاته ككائن حيّ، انتحب بصوت مخنوق في آخر لحظات عمره وأسبلت جفنيه ودمعة حسرة انسكبت على خدّه، وسدّته التراب وعدت للهمّ الثقيل، لا أحد يدري كنه المولود القادم إلا أنا، أيقنت أن إرادة الله شاءت فتقبلت طائعة، ولدتك طفلاً بلا ملامح، عطفت عليك، أرضعتك حسرات الزمن المرير، ربيتك ككلّ أطفالي، لكنّك غريب الطباع، لأنّ إرث جيناتك اليهودية تنغل بدمك، وتسم سلوكياتك وكلّ محاولاتي التربوية نافذة في باب المستحيل. سمع قصتي معه حتى أنفاسه الأخيرة، والتفتُ لابني فارس الذي لم يشاركنا العشاء الأخير: بنيّ إن كتبت لك الحياة أخبر العالم عن قصة أمّ أحبّت وطنها وضحّت بأولادها لأجله.

❁

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

١٤ - وهتف الصغار: فلسطين حرّة عربيّة

يدلف الحيّ يوميّاً قبل أوبة الغروب، معلناً عن وصوله بترانيم مزماره وصندوقه المعلّق برقبته المليء بحلوى الأطفال، ويُخفي همّاً ثقيلاً مدمّراً لاتّزانه النفسي والفكري، فينادي صديح مزماره أولاد الحيّ، فيتجمهرون لشراء حلواه، ثمّ يقف فوق مصطبة الحيّ العالية، متطاولا كبرياء، وبدلته البنيّة المهترئة التي أبهتت سنين القهر لونها، وتدلّت ربطة العنق فوق القميص الداخلي كحبل مشنقة، وبيده منظار مشروخ (ناضور لعبة) معلناً: من يشتري الحلوى سأكافئه بالفرجة على مدن فلسطين المحتلة، تعالوا لتمتّعوا عيونكم بسور عكا وبيارات يافا وجبل الطور والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم والحرم الإبراهيمي في الخليل، إنّه وطنكم السليب، بلد الخيرات وأرض الديانات.

هذا "ناجي السعدي" خطيب ألمعي مفوّه، ناصريّ الهوى كأبناء جيله، كنّا نشتري حلواه ونصفّق له، وتتقمصه الزعامة بعد البيع والفرجة، ويتهيّأ لإلقاء خطابا حفظه عن ظهر قلب للزعيم عبد الناصر ليوقظ أمل النفوس التائهة، فيرتّب بقايا شعره ويُعلي أضلاع صدره، ويرفع أكمام بذلته ويوزع نظراته الحماسيّة على جمهور الصبية، وبصوت جَهوري: أخواني، لا إقطاع، ولا احتكار، ولا رأسماليّة مستغلّة، بل ديمقراطيّة العدالة الاجتماعيّة، ثمّ يعلن لاءات الزعيم عبد الناصر التي عرفت في الذاكرة الشعبية العربية باسم "اللاءات الثلاث، لا صلح، لا مفاوضات، لا اعتراف" التي أعلنها غداة هزيمة ٦٧ في مؤتمر الخرطوم الذي يعدّ مؤتمرا مفصليا فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، ثمّ يتغنّى بالقوميّة العربيّة ويردد عبارته الشهيرة "ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلّا بالقوّة، وفلسطين حرّة عربيّة".

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

يغمره إباء العروبة وينحني لتصفيق الصغار الملتهب حماسة ويردد بشموخ "أنتو بكره ما تبيعوه"، ضجيجه حلم نصر ورفض للهزيمة، ويتقدم الصبية هاتفا في الأزقة "فلسطين بلادنا واليهود أعداؤنا" ويترنّم بمزماره "أصبح عندي الآن بندقية، إلى فلسطين خذوني معكم"، هذا زمن ناجي جزء من تراث الحارة الشعبيّة في بيروت وامتداد لحلم العودة، يرى فلسطين من منظاره على مرمى حجر، وقالوا إنّ سبب جنونه عبقريته الفذّة"، صورته لم تبارح مخيّلتي، عملاقاً ملأ الدنيا بضجيج خطاباته، لم أنس تلويحة يديه وانفعالات الغضب والأمل، وعباراته الثوريّة.

سألت والدي "هل العلم يؤدّي للجنون" ردّ متحسرا "لا يا ابنتي، ناجي درس في يافا قبل الهجرة وأكمل تعليمه الجامعيّ في القاهرة ونال الدكتوراه في السياسة والاقتصاد من الجامعة الأميركية وعيّن محاضراً فيها، لكنّ عبقريّته أدركت المؤامرات التي تحاك لتغافل القضيّة، وخفايا العبارات الوهميّة وما وراء السطور والأوراق التي تمرر من تحت الطاولات، لأنّهم باعونا وقبضوا الثمن، أقلقهم رفضه لنهج إلغاء فلسطين من الذاكرة العربيّة، فاستولى العملاء على ماله وأقصوه عن منصبه التعليمي، وسرقوا زوجته الجميلة وعذّبوه وأجبروه على طلاقها، لم يتنازل عن مبادئه وحلم عودته لوطنه، حاربوه بشتى الوسائل، صمد كالجبابرة، وأفقدته الهزائم بقايا عقله واتّزانه النفسي، فظلّ يُلقي محاضراته ويعقد ندواته الوهميّة على مصاطب الأحياء الشعبية لا مدرجات الجامعة الأميركية، وأحياناً يغيب بعقله لحظات حين يتذكر همسات الزوجة الحبيبة، وتراوده الرؤى الحميمة.

سحب صورتها من جيبه ليتأمّلها بعين دامعة، ويتذكّر عباراتها، حبّها ربيع أزهر ورودا في قسوة زمنه، إبعادها عنه عذاب لا يحتمل، روحها تغزل ذكرى لحظات حبّ تسكنه لتعينه على واقع مرير، مشاعرها رسائل حبّ تحوم حوله، الحياة في منفاه قطعة خبز يابسة مغموسة بالذلّ والقهر، متيّقن أنّه حين يلسعها برد الوحدة تختبئ ضمن عباءته لتلتمس الدفء من ذرات حبّه الملتهب، لا سبيل إلى اللقاء، يوم انتزعت من حياته قسراً أبكت كلّ من حولها، لكنّ نداءات

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الأطفال تعيده إلى واقعه المغيّب عن عقله: عمو ناجي اهتف: فلسطين عربية، فلسطين بلادنا واليهود أعداؤنا.

ناجي رجل مهزوز ورغم اختلاله العقليّ يكشف خبايا مؤامراتهم في بيع الأوطان، عبث الخوف بكيانهم، فلسطين في منظاره صور وحكايات يغرسها في فكر طفولة تحفظ فكره الثوريّ وصوته يتحدّى "فلسطين عربية وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة" قرروا رصاصة واحدة تكفي، واستقرّت في صدره حيث صورة الزوجة المسروقة، وسقط ناجي مضرّجاً بدمائه وهتافاته في زقاق الحيّ القديم، وفارقته الروح وحلواه بُعثرت ومنظاره المشروخ في قبضته، وبكاه الصبية حزنا، حمل أحدهم المنظار، وصدح صوته: هذه فلسطين الحبيبة واتفرج يا سلام على عكا وحيفا ويافا واللد والرملة وبيسان... وتجمّع الصبية ودمعهم يملأ المآقي وهتفوا "فلسطين حرة عربية، فلسطين بلادنا واليهود أعداؤنا" وتعالت أصواتهم التي لن تخرس من الأزقة إلى عنان الفضاء.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

١٥ - زمن الرجال

التقينا بوفدهم السياحيّ صدفة من خلال رحلة مدرسيّة قمنا بها لنتلمّس بصمات التاريخ التي تنطق بعروبة الأرض وبطولات الصحابة الكرام وتؤكد مرور صلاح الدين من هنا وترك بصمة مشرقة في جبين الزمن، لنتيه فخراً بأمجاد الأسلاف، وما أن وطؤوا الأرض رافعين علم "نجمة داوود" شعارا لهم، حتى التهمت آلات تصويرهم السفوح والشقوق والمياه وأعشاش الطيور وأوكار الثعابين وحجارة الأرض، واكتنزت صوراً للمآثر والآثار.

سرحت بفكري وأسئلتي تدمي لساني، لم هؤلاء هنا؟ لم هذا الكمّ من الصور؟ أهي شواهد تدليس وتحريف حديث، هل يبحثون عن جُدر صخريّة لتهتزّ رؤوسهم عندها، هل يخطّطون لاستلاب جديد ليدّعوا أنّ أنبياءهم مرّوا من هنا ليختلقوا أدلّة وهميّة لأطماعهم؟ صحوت من عصف أقلقني على صوت نشيج حزين رنّ مسمعي، التفتّ إذ بطالبة يسحّ دمعها وتكتسحها رعدة خوف، احتضنتها وتساءلت، أشارت للوفد السياحي "الذي قتل أبي كان يعتمر مثل تلك الطاقية "الألوسة"، إنّهم يهود وهذا علمهم، أبعدوا أسرتنا إلى هنا، هل جاؤوا ليقتلونا؟

هدأ روعها حين أعلمتها ساخرة "لا تخافي،هم سيّاح اسرائيليون" نبّهت الطالبات "أرجو التزام التعليمات، ممنوع التحدّث مع السيّاح"، أتعبهم التصوير الهادف، فجلسوا على قارعة الطريق ليأكلوا الخبز وحبّات البندورة والمرشد السياحي يكتم غيظه، لأنّه تمنّى أن يدخلوا مطعماً لعلّه يقبض إكراميّة أو تستفيد الدولة من المردود السياحي.

متّعنا النظر بجمال الصخور الورديّة وأردنا تتبّع مجرى جدول منحدر من بين الصخور الورديّة، انطلقت وزميلتي مع بعض الطالبات لنستطلع منبعه المتدفق في طريق ضيق بين الصخور الشامخة، إذ بشابين يرتديان زيّا رسميا أنيقا يتتبّعان

خطونا، سألت باستياء: لمَ تتابعان خطونا؟

قال باحترام: نحن رجال أمن ومتابعة!!

رددت بهدوء: مع تقديري لمؤسسات الدولة العسكريّة، لمَ المتابعة؟

ردّ بأدب: لأنّ الوفد السياحيّ الذي سبقكن إلى المنبع وفد إسرائيلي!!

قلت بفخر: أتريد حمايتنا من الإسرائيليين؟!

: كلا، بل أريد حمايتهم منكن!!

: لكنّنا كما ترى معلمات وطالبات "إناث" لا حول لنا ولا قوة!!

رد بكياسة: ألم تكن الفدائيات ليلى خالد ودلال المغربي وفاطمة البرناوي "إناث"!

أجبته وكلماتي تتدافع بين الحسرة والألم: بلى، وأخوات الرجال في زمن الرجال، ولك الحقّ في حماية أمن الدولة!!

عدنا أدراجنا وسؤال يطرق رأسي: من يمسح دمع هذه الصبيّة ويعيد إليها بيتها المهدوم وحقّها المسلوب ويعطيها الأمان ويزيل خوفها.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

١٦ - القنبلة لم تنفجر بعد

أيقظتْهُ من سبات أحلامه الوردية، فرك عينيه من مسبّلات الكرى وتمطّى لينفض عنه سطوة سلطان النوم، توسّلته: يجب أن لا تفوتك الحافلة، نحن إن لم نلهث وراء الرغيف نموت جوعاً وذلّا.

ردّ بانكسار: عمل المصنع مرهق، لأنّي أحمل أثقالا تفتت عظمي.

: أدرك أنّك تعاني من صعوبة العمل وتتحمّل أسوأ معاملة، لكننا اعتدنا القهر والظلم، ولا يروقني ضعفك لأنّ تحمّل المشقة رجولة، ونحن بحاجة "للشيقلات" ولنبعد عنّا مرارة الجوع والحاجة، ولأجل زيارة والدك في معتقل "نفحه" فالمدخرات لن تكفينا لمشوار المعتقل.

زفر دمعه: ليتني أعمل مزارعاً في "الكيبوتس" القريب مع المستوطنين فالأجر مرتفع والعمل مريح، لكنّ رفضهم تشغيل الفلسطينيين خوفا منّا، وأتمنّى رفقتك لزيارة والدي، لم أره منذ سنين، أكاد أنسى ملامحه، أتكون زوّادتي اليوم بندورة أو بطاطا مسلوقة، لقد مللتها!

: أيّ طعام مع الجوع شهيّ، وزوّادتك اليوم شهيّة لقد جهّزت لك ثلاث كرشات محشوّة بالأرز والحمص صدقة من ذبيحة آل الفرحان.

التحق بالحافلة المتجهة إلى "نتساني شالوم" غرب طول كرم، جلس في الكرسي الأخير، لأنّ المقاعد الأولى للمستوطنين، وسرح فكره في قضيته التي دافع فيها محامي العمالة الفلسطينيّة وخسرها وحُرم أخذ بدل إصابة عمل، استؤنف الحكم للتعويض وخسر، مع أنّ الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيليّة "هستدروت" دعم مطلبه.

حرص على زوّادته بالكيس الورقيّ كشيء ثمين، نفذت رائحة الطعام لأنفه فأجرت لعابه، نظر للكيس فوجده مبتلاً، واتسعت رقعة البلل لتثقبه، واهتزت

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الحافلة بفعل الكابح فانشطر كيسه وتدحرجت الكرات الثلاث وتمركزت بأركان الحافلة، دبّ هرج ومرج وذعر، ارتجف المستوطنون من ركاب الحافلة، اخترقته النظرات الغاضبة وصدحت الاتصالات، لم يدرك علّة رعبهم، بعد لحظات طوّقت قوات الأمن الحافلة، هرع الركاب بالنزول إلا هو، الأيدي ترتعش على البنادق الموجه نحوه وأصوات تجلجل "عربي، إرهابي، مخرب".

تسمّر بمكانه، وأرجف الخوف مفاصله، لم يفهم ما يدور حوله، اقترب خبير المتفجّرات من الكرة المحشوّة معلناً "إن سحبنا الخيط تنفجر، انبطحوا أرضاً" أطاعوا الأوامر، اقترب منها وغرس نصل البندقية فيها، فتفجّرت حبّات الأرز العنقودية هنا وهناك وتدحرج الحمص الانشطاري، وعيون الصبي تحدّق فيهم، وأدرك ما ظنّوه، بكي طعامه، وحجزوه لمعرفة ماهيّتها، أيقول لهم إنّها قنابل مصنّعة محليّاً بعبقرية الجوع القهري، أجاب بصوت مرتجف "غدائي، طبخته أمي، كرشات من أحشاء ذبيحة آل الفرحان" تنادى الجنود ضاحكين: كرشات، كرشات، مدّ الموت لسانه ساخراً لأنّه لا يحبّ الجبناء، بل يزهو بأرواح الأبطال، بكى وسؤال بحجم المعاناة يلحّ على نفسه لِمَ نُهزم ونُذلّ من جيش تجذّر الجبن فيه؟

❁

١٧ - السندباد في بلاد الشام

قبيل الغروب اصطحبت الجدة حفيدتها الصغيرة "راما" لحديقة المنزل، جلستا تحت الدالية، حدّقت في عينيّ الجدة لتستلهم أحداث القصة، أخذت تسرد "يحكى أنّ بطلاً أسطوريّاً اسمه سندباد..." ثمّ تثاءبت وغفت، بكت راما وأرخى المساء سدوله، رنت حائرة للنجوم وإذ رجل بحجم أصبع يقع في يدها، يحمل سيفاً مصقولاً وشعره مجدولا، "من أنت؟" ردّت "أنا راما، من بلاد الشام".

حدّق فيها مذهولاً: أنا سندباد عابر القارات وعندي حنين لبلاد الشام، هيّا نطير عالياً لتكوني دليلي للتعرف على معالم بلاد الشام العريقة.

راما: أتسمع أنين المجازر من المخيمات الفلسطينية، هذا مصطلح حديث للقتل الجماعي، هنا مجزرة "تل الزعتر" لأنّ برجوازيّة الطوائف لا يرضيها وجود لاجئين في بيوت التنك على أطراف أرستقراطيتهم، فكان لا بدّ من إزالتهم بطريقة "الأكروبات" وذلك بوضع الناس في أُطر السيارات وإشعال النار بهم ودحرجتها، أو ربط قدميّ كبار السن بسيارتين لتسير كل سيّارة باتجاه معاكس للأخرى.

سندباد: أليس القتال مبارزة بين الفرسان، هذا الجَور أذاب قلبي!

راما: لا تذهل، إنّ إبداع القتل تحقق في مجزرة "صبرا وشاتيلا"، هنا حاصر الإسرائيليون المخيم واصطفوا على مشارفه كمصاصي الدماء وأضاؤوه بقنابل فسفوريّة، وجنّدوا لهم عرباً سكارى، وأقاموا كرنفالاً لإهراق كؤوس الدماء على أسنّة الحِراب، وسكروا على صدى أنين الجرحى والمازّة عيون الأطفال وآذان الصغيرات "المقرمشة " واغتصبوا النساء وعلقوهن من الأثداء، بقروا البطون وقطعوا الرقاب بالبلطة، (هس عالسكيت) بعد ثلاثة أيام عبقت رائحة الموت النتنة، عرضت صورهم تحذير "لا يسمح لضعاف القلوب بالمشاهدة"

: ألم تستنجدوا أو تتنادوا.. وامعتصماه، وأسداه، وانسراه، وا.. وا..

: هم في القصور ضربت على آذانهم هدأة الترف سنين عدداً.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

سندباد: ما لشاطئكم لونه أحمر، ومن هذه المرأة النائحة؟

: من دماء الأطفال التي فاضت بها البحار الظمأى للسياحة الدمويّة، بعد ذبحهم حمّلوهم في شباك الصيد وألقوا بهم فيها، والمرأة هي سعاد الفلسطينية التي اغتصبت مرتان خلال الحواجز الطيّارة ولمّا وصلت لمحكمة العدل الدولية لتحاكم المغتصب قُطع لسانها وحُرق ملف القضية، وهي تائهة تبحث عن عفتها وذاتها.

سندباد ثائراً: ألا يوجد أبطال تدافع عنهم، وما النور القادم من المخيم!

راما: الأبطال رُحّلوا على أسنّة الرماح، وقد وعدوهم بالدولة والسلام ومنحوهم الأمان على أنفسهم وعيالهم، ونثروا الحلوى وصدحت الزغاريد، وبعثروهم كالرماد في الفيافي العربية، وهنا دفن العشرات بسبب الحصار، لأنّهم دربّوا جماعة مستضعفة وقدّموا لهم السلاح فلمّا اشتدّ ساعدهم واختلفت المصالح دمّروهم، وهذه الساحة كانت مخيماً للاجئين، اغتاظ منهم زعيم طائفة فأقسم أن يهدم الحيّ ليكون ساحة لكرة القدم، وبُعثروا في غياهب القهر.

ألقى سندباد نظرة: هل أقيمت الأسوار للقطعان ولم الخيام عند النهر؟

ضحكت راما: عمو سندباد، هذا مخيم "عين الحلوة" وخوفاً من استشراء فيروس الإرهاب أو أنفلونزا المقاومة الوطنية، ارتأت مصلحة السياسة العليا إحاطتهم بالأسوار كسور الفصل العنصري في الأرض المحتلة، وثبتت على مداخله الحواجز المنيعة، ومن هنا أبدعت ريشة حنظلة الشجراويّ "ناجي العلي" صوراً كركاتيريّة لمعاناة شعبنا، وتحجرت ريشته واغتالوه في مدينة الضباب.

وفي الشمال عند النهر "مخيم نهر البارد" في واجهة الميناء فادّعوا أنّ فيروس الإرهاب استشرى بهم فحاربوهم فتبعثروا وانتشروا في العراء وتحوّل الميناء لواجهة سياحيّة وابتلعوا المساعدات التي قدمت لإعادة إعمار لأنّ هذا الشعب اعتاد كبوة الخيام وله مقدرة على إعادة بناء ذاته.

سندباد: هل هذه مغارة "أبو علي والأربعين حرامي"؟

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

راما: هذه مغارة "جعيتا" الرائعة، هنا لا يوجد مُغر تتسع للصوص، فالشرفاء أربعون، واللصوص لا حصر لهم، لكن انظر للذين يلوحون لمن أغوتهم الهجرة للغرب، هروباً لوجود مرفوض، خدعوهم بالرفاهية والرقي وبعثروهم في متاهاته كمواطنين من الدرجة الثانية، وأضاعوا ذواتهم وهويتهم وتحسّروا على زمن المخيم الدافئ بنسمات الأحبّة، هذه غزّة هاشم، والكلام عنها يطوووول ويقطّع نياط القلب.

انطلق سندباد صارخاً من القهر: أيكون العرب بهذا الخذلان، ليتني لم أعرف بحالهم آه،آه،آه.

نادت راما :سند، باد، سند، باد، سند، باد ، صدى صوتها يرن بين غمز النجوم، لوّحت له، لكنّه تبعثر قهراً فوق الكواكب، حزنت راما، ضحكت لها نجمة فرقعت راما ضحكة، ضحكة أيقظت الجدة: كان يا ما كان، راما: يا جدتي، وهل سيكون أسوأ مما كان..؟

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

١٨ - وعصفت الذاكرة

قبل طلوع الشمس يجرّ لاهثا عربة تئن تحت سقفها أعواد خشب واهية، ومحاطة بستر خيشي مهترئ، يبيع الخضار عبر شوارع منداحة على مدِّ البصر، ويعيده المساء حاملاً بقايا خضاره عشاء لأسرته، يجلس أمام تلفاز يمدّه بأخبار العالم، ويحلل أخبار الوطن المسروق بصوت خفيض على مسمع زوجته، وحين تبادر للتعليق يسكتها، فتعترض"لن يسمعك أحد، لأننا نسكن التسوية" فيزمجر ناظرا ليده المبتورة في الكمّ المهترئ من جراء معركة مع العدو، ويردد بقهر"كثير باعونا وقبضوا الثمن والحيطان لها آذان، لن تدركي ما يحدث بالأقبية السريّة.

طوّحته ذكرى مريرة حين وقف ضابط المعتقل المتجبّر عند عربته وبيده سوط يتلوّى بإيقاع ظلم سائلا"بكم البطاطا" تجاهل وجوده وتوارى عن وقع نظراته وتلهّى عنه بترتيب بضاعته، ملامحه محفورة في ذاكرة أزليّة، وتحسس صدغاً دوّت الصفعات عليه، ألحت عليه قوّة توهمه أنّه لن يمس أحد نقطة ضعفه، لكنّ ذلاً وجيعاً قفز من الذاكرة وجعله يقعي خلف عربته لاهثاً يضغط بكفه على رقبته ليحدّ من تضخم الغدة الدرقية التي يثيرها الخوف المتراكم وحدجه بنظرة حقد وأخفى دمعة ذلّ، لم تعجبه البطاطا فنظر إليه بازدراء واختفى، فرماه همساً بأقبح السباب وتنفّس بعمق.

في تلك الليلة فجّر الخوف نسيج الغدة الدرقية وتضخّمت أضعاف حجمها كأنّ مسّاً حرّك فيها هواجس رعب خفيّ، فأطبقت على أنفاسه وانطلق هائجاً لساحة الدار، وبددت آهاته سكون الليل "الحقوني أنا بموت"، فحملوه للمشفى، وغُذّي بالأكسجين، ثمّ خضع لجراحة معقدة لاستئصالها، وبعد نقله لغرفة العناية الحثيثة انفلت من رحلة البنج، فوجد نفسه محاطاً بأسلاك متشابكة وخراطيم،

المكان يغط في هدوء ولا تسمع إلا كركرة عربة تنظّف أروقة المشفى.

في تلك اللحظة المنفلتة من عقال الزمن عبثت الرؤى القاسية به ونسجت صوراً مرعبة، وأضحت الحقيقة تائه على حواف الذاكرة لتغزل هواجس حادّة كمدية سلّت لتطعن مهزوم أفكار هاجمته، فنزع الأسلاك بعنف، تعالت كلماته التائهة "المكان بؤرة تعذيب ومحاصر لاعتقالي، اسكتوا صراخ المعتقلين" طمأنته الممرضة "أنت في العناية الحثيثة، والصراخ قادم من قسم الحروق" تكوّر في الزاوية ومادت الأرض تحت قدميه وتشظى في ذاكرة الزمن، عنّفها " أنت كاذبة، إنّها أصوات من غرف التعذيب، وبهذه الأسلاك تريدون تجهيزي للصعقات الكهربائية، لن اعترف، أين سلاحي؟" اقتنص من عاملة النظافة مكنستها ومن الممرضة المقص وهدد معنفا "هذا سلاحي، سأقاوم للرمق الأخير قبل أن تسطو المؤامرات على وجودي" اندفع الممرضون نحوه، اختبأ في خزانة الملابس وتكوّر على أعضائه، آهاته محمومة، وقهقهات مرعوبة، الممرضة فزعة "عد لسريرك جرحك ينزف، قد تموت، استدعوا أهل المريض، لقد أصيب بلوثة في عقله"، تجنّبه الأطباء وتشاغلوا بغيره وهم يفجّرون ضحكاً مكبوتا.

وزّع نظراته الحادة على وجوه تداخلت بأزمنة غابرة وتاهت كلماته، ودوّى بضحكة ساخرة، خبط قدميه وتفل عليهم، لوّح بعصا المكنسة "أنتم الحكام القساة، ثيابكم بيضاء وقلوبكم سوداء، لن أركع لكم! أتسمعون صراخ المعتقلين، نحن في عوالم لا تستقيم لحكامها سلطة إلا إذا ارتوت بدماء الضحايا، لقد عايشْتُ حقيقة الموت السرمدية تحت لسعات السياط وبين أنياب الكلاب وصعقات الكهرباء، لست إخوانيّا ولا قاعديّا ولا شيوعيّا ولا إرهابيّا، ولا بلطجيّا، اليهود احتلوا وطني وشردوني، أريد حقلا يطعمني وبيتا يؤويني في وطني، وأرفض لقب لاجئ، وأتمنى أن أكون مواطنا له حقوق المواطنة" حقنه الطبيب بحقنة مهدئة قائلا "أنت تصغي لأوهامك، عد إلى رشدك".

حيرة أذهلت عائلته، فبكوه بمرارة، واحتدّت زوجته "تقبّلت إعاقتك فداء للثورة لكن لن أتقبل جنونك" حدّق في الوجوه ولفّه دوار قسريّ وفقد وعيه، أعادوا الخراطيم والأسلاك، طمأن الطبيب زوجته الباكية على قواه العقليّة، مفسرا لها أنّها فوضى ذاكرة بسبب البنج، ويبدو أن ذكرى اضطهاد سياسي عاناه في هذا المكان فعصف بذاكرته، استفاق من نومه، حدّق مليّاً في الجميع وناوشته أسئلة "لم أنتم هنا؟ ألم تذهبوا لجامعاتكم ومدارسكم، أريد ماء وأشتهي حساء العدس" طمأنتهم أمّهم "الحمد لله عاد أبوكم إلينا، فلنعد لحياتنا المعتادة".

❁

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

١٩ـ لقاء في مالمو

حلّقت بي الطائرة في الأجواء الأوروبيّة، ورأيت امتداد أدغالِ الزنابق في هولندا وكأنّ ريشة "لرامبراندت" ترسم زهور التوليب وتطرّزها بألوان متناسقة على رداء حسناء تتمايس بإيقاع سعادة، وطئت عالم المطار الذي يموج بأرقام وأبجديات لاتينيّة ويتقاذف دفقات المسافرين بين مدّ الذهاب وجزر الإياب من بقاع الأرض بنظام دقيق وحركة دائبة محسوبة كأنّه أرض المحشر، تلفهم أكفان الصمت والحيرة لميقاتهم، متباينين بملابسهم المعبّرة عن تقاليدهم وكأنّهم مدعوون لكرنفال عالميّ، فالمطارات مستودعات الغيّاب.

حملني وحقائبي شريط أرضي متحرك للطائرة المتوجّهة لمدينة مالمو السويديّة لزيارة أختي، تلبّسني هاجس التيه وأنا محلّقة في ملكوت الله، لكنّ إجادتي للغة الإنجليزية خفّف ثقل الخوف عن نفسي، وكنت المسافرة الوحيدة التي عليها إبراز جواز سفرها لأنّي العربية المسلمة الوحيدة على متن الطائرة، فالركاب "أهلية بمحليّة" ليت هذا في مطاراتنا وبوابات حدودنا العربية، ابتلعت حسرتي وشردت إلى أن أيقظني صوت المضيفة "بيف أور تشكن" بدا حذري من الطعام جليّاً، فقدمت "التشكن"، وصلت مطار مالمو، تصفّح الموظف بيانات جوازي، شاب في مقتبل العمر وسامته مذهلة لا تشعر بغربة ملامحه، وخلت أنّ هذه الملامح لها بصمة في ذاكرتي، وضحك بدف، فتساءلت "Why are"you laughing?" ، فرد بلطف: "من وين أنت جاي؟"

لغته العربية هدّأت الطمأنينة الهاربة من اغترابي، وبعد حوار تبيّن لي أنّه عربيّ من لبنان، فاكتنفتني فرحة من وجد نفسه التائهة وأعلمني بمسقط رأسه، واكتشفت أنّه من الحيّ الذي أمضيت فيه أحلى أيام صباي، قرأت اسمه من "الباجة" "سامي المنسي" فأضاءت ذاكرتي من ذاك الزمن باسم "وليد المنسي"

استفسرت عنه، ردّ بوجع خفي "إنّه أبي" أردفت بحنين موغل لزمن بعيد "إنّه أستاذي، أتخيّله هرما"، فقال بأسىً"كان أبي معلماً في إعدادية حيفا التي كانت المناضلة دلال المغربي إحدى طالباتها، واستشهد بل اغتيل منذ عشرين سنة بيد عربية وهو يدافع عن المخيم! وأنا هنا مسؤول قسم وكان محذوراً على أبناء وطني في بلد الشتات العمل في مؤسسة حكومية أو خاصة"، ناولني جوازي وأردف معتذرا "الآن انتهى دوامي ووصلت صديقتي السويدية وابننا وليد"،رحّب بهما بقبلاته وحمل ابنه، التقى بشاب مسترسل الشعر موشوم الجسد، يتزيّن أنفه بحلقة معدنية، لاحظ دهشتي "هذا صديقي، عربي!" حيّاني مبتعدا نظراته تنوء بأسىً.

خلت ريحاً هبّت على ذاكرتي وانتابتني "نوستالجيا" ذاك الزمن الجميل حيث أزهرت أحلامي وحلا مرتع صباي، رحلت مع حلم فائت، كان الأستاذ وليد رجلاً ناضجاً ومعلماً متميّزاً للتاريخ، دافقاً بحنان آسر شغوفاً بعطائه، اقتنص اهتمام الطالبات وأحلامهن بوسامته ودماثة خلقة، واستطاع احتواء لهيب مشاعرهنّ بأخويّة وأستاذيّة مبهرة.

كانت القضية الفلسطينية دأبه، وشعاراته الوطنية تعطيك يقيناً أن فلسطين وراء باب واهن، ومؤرخاً بنهج أدبي لأزمنة الهزائم المؤطرة بالخيبات وتشظّي الآمال، آخر مرة رأيته فيها كان مرتدياً زيّ فدائيّا، ودّعنا بصوت مليء بصدى الحماس الواثق من خطاه "الآن اخترت الطريق الصحيح، ومسيرة التحرير بحاجة لي، وأنتن أمهات الغد اللواتي سيربين جيلاً مناضلاً" بكيت مع العيون الدامعات على فراقه، وانقطعت أخباره وتوهتنا تطلعات الحياة في دروبها وباعد بيننا الزمن ولكنّه ما زال يحتل زاوية مشرقة في الذاكرة.

تساءلت في نفسي، أتغتال أمانيه وأحلامه على أيدي المناوئين للثورة، ويُخلع ابنه من جذره ليكون منتمياً لثقافة سويدية، وحفيده جذراً ممتداً خارج السرب لا يحمل من عروبته إلا الاسم، هل حارب وليد واغتيل لأجل فلسطين وتحريرها، أم

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

من أجل أن تقتلع جذوره وترمى في أرض غريبة، وتدفق دمعي على آمال شعب خابت في ظل المؤامرة الكبرى، وصلت أختي متلهفة ونظرت إليّ متسائلة "أهي دموع فرحة اللقاء!" أومأت بالإيجاب، ودمعي حسرات على ضياع هويتها وهوية وليد الابن وكلّ مهاجر، وراودني قول "عائشة الحرة" والدة عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس حين ألقى نظرته الأخيرة على غرناطة في مكان معروف باسم *"زفرة العربي الأخيرة"* فبكى فزجرته "ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال" لو كانت عائشة في زماننا أتقول "ابكوا على شعوب عربية ضاعت قلباً وقالباً ونطلق على كلّ الأمكنة زفرات الأمة العربية"!

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٠ - صائد الخفافيش

ضحكات خالد تعانق أضواء الشمس المتسربلة بخيلاء فوق السفوح، ويتأرجح بالأغصان متدحرجا لأسفل التلّة بين الشجر، اشتهر بدقّة إصابته للهدف، إذ يصخب فرحا حين تلتقط عيناه طريدة، لأنّ أقصى أمانيه مطاردة أرنب بمقلاعه أو يمامة محلّقة لوجبة عشاء أسرته الذين ينتظرونه وإلاّ باتوا على الطوى، وحين تنسج العناكب ظلال العتمة يستلقي عند السفح مسافراً بمخيلته لحلم بعيد الرؤى آملاً بالثأر من خفافيش الظلام لأبيه الذي استشهد عند الحدود وهو يقاوم العدو الإسرائيلي، عند أوبته يعلّق صيده الزاخر بطرف عصاه المتأرجحة على كتفه متجهاً نحو بيته في المخيم، يمرّ بمكتب التنظيم لتحية رجاله، فينتقد بقسوة من لا يعنيهم إلا السهر في النوادي الليليّة "حيّا الله موظفي الحركة" فيواربه الزعيم بنظرة استياء "نحن ثوار التنظيم"، ويتودد لزملاء أبيه لصدق انتمائهم للثورة والمقهورين لتقاعسهم عن النضال بسبب تنفيذ اتفاقيات تقيّد مسيرتهم.

بعد توقيع اتفاقيّة ترحيل الفدائيين المشرذم من لبنان للبلاد العربية، سألهم خالد "من يحمي المخيم من الإسرائيليين بعد رحيلكم"، ردّ الزعيم بحزم "لقد تعهّدت الحكومة بحماية المخيمات، نحن مغادرون" ردّ خالد بإباء "ونحن قادمون" صفعه الزعيم بنظرة استهزاء" أتحمي المخيم بمقلاعك! سأعطيك قطعا من السلاح لتخفيها في الحرج قد تكسب بعض الليرات إن بعتها خردة، لأنّه غير مسموح لنا إلا حمل قطعة سلاح واحدة".

استنكر خالد حقيبة الزعيم المليئة برزم النقود، ردّ بصفاقة: القضية لا حلّ لها، وما اقتنصته من أموال أضعه في حسابي البنكيي لغدٍ مجهول، لأنّي بعد وصولي لتونس سأهاجر إلى أوروبا لأعيش ملكاً" شرد خالد وراء أفكاره، كيف يحاربون لأجل القضية وتكتشف أنهم يبيعون قضيتك لأجل حفنة دولارات وقد باعوا الأسلحة الثقيلة للأحزاب الوطنيّة والتي استولت على المعدات الطبيّة

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الحديثة التي جُهّزت لمشافي التنظيمات، وآلمه قول أحد المقاتلين الشرفاء "والله لا أملك إلا بقايا الراتب، كيف سأترك أسرتي ولا نفقة لهم".

قام العدو الإسرائيليّ بعدوان على الجنوب اللبناني لتطهيره من فلول المقاومة الفلسطينيّة، واقتربوا من المخيم الذي تركه صقوره وغربانه، لكنّ الصيّاد الفتيّ لم يستسلم ولن يتخاذل أمام العدو، وقرر التصدّي لهم ثأراً لوالده ودفاعاً عن المخيم، ونزع فتيل الخوف ودفع صمام الأمان بداخله، مستأذناً من أمّه الصابرة" ألم يردد أبي قبل المعركة "اللهم احتسبني شهيداً" وطبع على جبينها قبلة وطوى.

تعالت النداءات الإسرائيليّة قرب المخيم "استسلموا وسلّموا سلاحكم" توارى خالد فوق مسجد المخيم ليراقبهم، وشعر بحقدهم وهم يحطّمون الإذاعة التي تشدو بأغاني الثورة "ثوري ثوري" وشاهد جنديّاً يفترش علم فلسطين ليمارس الفاحشة مع مجندة عليه ويتبوّل عليه يدوسه بقدميه، أفعاله المشينة حرّقت دم خالد وتمثّلت له صور المذابح وانتفض متحدياً "طلبتم الموت يا جبناء" تجوّل الفتى الصنديد في مداخل المخيم ومنافذه والمواقع المشرفة على الطريق العام.

صلّى صلاة الحاجة، حدد أهدافه العسكريّة واستنار بخطّة استراتيجيّة وتماهى بحركة دؤوب بأزقة المخيم وجهّز قنابل "المولوتوف" والمتاريس الرمليّة، واستخدم سلاح المقاومة الخفيف وقنابله المهجورة، فثبّت "كلشن" عند مركز الهلال وآخر عند مركز المؤن، وعند مدرسة وكالة الغوث، وعند مطعم "فلافل حيفا"، والأخير عند مكتب التنظيم الذي تنخره العناكب والبوم، تحرّك بسرعة بين قطع السلاح التي في اتجاهات خفيّة وأطلق الرصاص بخفة من كلّ جهة لتشمل أهدافاً بشريّة من كبار القادة العسكريين بسلاحهم المتطور.

اقتنص بطلقة قاتلة أحد قادة المخابرات الإسرائيلية الذي عرفه من صورته وقد تلطخت يداه بدم المذابح، ثمّ رصد جيباً عسكرياً وأطلق الرصاص على المقعدين الأماميين وقتل الضباط الأربعة، وتحرّك بسرعة إلى المسجد للاختباء

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

فيه، ثمّ تمركز عند نافذة الميضأة وأطلق الرصاص على الجيب الذي يليه وأسقط ثلاثة قتلى، أصابته طلقة سطحية في ساقه من جندي، فقفز مسرعاً لتفادي وابل النيران، ثم عاد إليه وأفرغ رصاصاته فيه، اقترب ثلاثة ضباط يصوّبون مسدساتهم نحوه فاختبأ خلف متراسه الرملي للتصدّي، وتحدّاهم برباطة جأش وتبادل إطلاق النيران معهم وجرح أحدهم، وعندما تقدّم الاثنان لإنقاذ الجريح باغتهم بإطلاق النيران المفاجئة وقضى عليهم، وعدّل من خطته الدفاعيّة فبدّل مواقع السلاح ورصد التحركات السرية كشبح.

فاجأه الجندي الذي أهان العلم الفلسطيني بفعلته الشنعاء متمركزا في سيارة نقل تحمل مدفعاً، فاستنهض قواه للثأر منه لو ضحّى بحياته ثمناً لقتله، واستعدّ بسلاحه للتصدّي، وأفزعه رؤية القتلى فصرخ "ولد مخبول" وقبل أن يحرّك مدفعه تجاهه عاجله بطلقة قاتلة، وتمركز للمناورة في المدرسة لكثرة نوافذها، وطارد آخر جندي في أزقة المخيم المتداخلة، وكان حذرا خشية تتبعهم للانتقام منه، وفرّوا معتقدين أنّ في المخيم حامية عسكريّة متمكّنة.

حمد الله على النصر الذي حوّل الأسطورة إلى حقيقة واهية، واستراح عند خزّان المياه، أقبل أهل المخيم إلى الساحة ليستطلعوا الجماعة التي دافعت عنهم فلم يجدوا إلا خالداً بدمائه النازفة جراء إصابة ساقه، فحملوه على الأكتاف هاتفين "لولاك يا بطل، لهلكنا"، حكى لهم أحداث عمليته الدفاعيّة عن المخيم، فأشادوا ببطولته التي دلّت على وهم قوّة العدو الذي عليه أخذ مضادات الاكتئاب لمعالجة أوهامه العنصريّة، وأيقنوا أنّ فلسطين على مرمى حجر.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢١ - مرارة التغريب

بحث عنها بين الغرف في "دار المسنين" فوجدها منهمكة في تجهيز أحد المسنين للدفن، نظراتها غاضبة لما آل إليه حالها، فأعلن بفرح: أبشري، حصلنا على الجنسيّة الدنمركيّة التي ستحقق لنا الأمان، لقد تخلصنا من ذلّ الوثيقة الفلسطينية والتغريب، من وصمة عار "لاجئ" وبها سنكرّم بمطارات العالم، وتفتح الأبواب الموصدة وسنزور فلسطين كأيّ أوروبي ونتفرج عليها، ويرحّب اليهود بنا.

ردت باستياء: أتكرمنا الجنسيّة، ونحن نوصم بعروبتنا وكأنّها سبّة، ونزهو بمواطَنة من الدرجة الثانية! إنّها قضية جدليّة، وهل الخلاص فناء كياني وتجاوز إنسانيتي، وتنافر لائتلاف كينونتي، كيف أحيا مع شعوب تقبل على الموت انتحاراً، وتحيا مدفونة كأشباح في بؤر الصمت، لا سماحة في وجوههم، المسنّ ميت قبل الموت ومرعب بعد الموت، الحياة هنا موت، والموت في المخيم خشوع ورحمة، هذا تناقض في حيثيات الاغتراب، ليتنا نعود إلى المخيم.

أذهلته ردة فعلها: خلتك ستفرحين لإحساسك بالأمان والاستقرار، فالطبيعة جمالها مبهر والنظافة انتماء والوعود صادقة والأمان متحقق للتأمين الصحي والاجتماعي، والتعليم المجاني لأولادنا.

ردت مستاءة: كنت طبيبة في المخيم وأصبحت عاملة في دار المسنين في بلد غربي يعاني من البطالة وأولوية العمل فيه لأهله.

ردّ مقهوراً: عشنا مذلة التهميش، العدو على الأبواب يترصّد اغتيالنا، وخلافاتنا تجسيد لتيارات عربية مناوئة، بل كنّا مذلّون بالفقر والحصار والصراع السياسي وتجاهل الكفاءات، هناك لا عزّة لنا ولا كرامة، والتحقير تجاوز كلّ الانفعالات.

ردّت بفرح: كنت فخورة لأنّي زوجة أحد رموز القضية، وتعهّدت مرافقتك في

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

مسيرة النضال، وجاهدت بمشرطي لمعالجة جراح الوطن وأملنا أن يحتوينا وطننا الحرّ، والآن من نحن! كأنّي بهذه الجنسيّة غراب يرتدي ريش الطاووس، وتلاشت بيننا ألفة الثنائيّة لصقيع الاغتراب، حياتنا في المخيم مليئة بالحب والتواصل، كنت أختاً لكلّ صبية وأمّاً لكلّ طفل، وابنة لكلّ عجوز، وأصرع الجراح وأنقذ الحياة، أتذكر «أبو علي» لحظة احتضاره وهو يدعو لي، ذارفا دمع العرفان "الله يرضى عليك يا ابنتي"، إنّها وجوه تشرق بقبس من نور الإيمان مغلّفة بسكينة الوقار، أعشق المخيّم بأزقته وطوابقه المعانقة لبعضها وبنيته التحتية التالفة، وأهله حين يجلسون على الأرصفة يتسامرون ويضحكون ويكركرون النارجيلة، وصوت الباعة ومناوشات الصبية، وهم يتبادلون التحايا باشتياق فنشعر بإنسانيتنا ووجودنا.

ردّ بعنف: أنت لا تحبين الرقيّ والنظام والرفاهيّة.

: الرقيّ يعني الإنسانيّة والمحبة، بالأمس جاء ولدي باكياً لأنّه كلّم أحد المسنين "هاي جدو" فصرخ به "هلشفتم" (اخرس)، نظرتهم للحياة عاموديّة، عند الموت تتطاير من أفواههم حشرات بعد زهق الروح كأنهم أكفان من جليد، إني أختنق أريد العودة!!.

: عودي وحدك واتركيني مع الأولاد لأبني لهم مستقبلاً مشرقاً!

انتشت بحديثها: سأعود للحياة الصاخبة والمفعمة بالحبّ، رغم فقدنا لكلّ الحقوق المدنية، إلا إننا احتفظنا بإنسانيتنا، ليست هذه أحلامنا التي سافرنا إليها متنكرين، أرجوك يجب العودة قبل التحول إلى مسخ، بلا هوية، أريد المخيم بكل خرائبه، كرامتي هناك، ما أنا إلا عاملة لدى المسنين، هنا اندثرت أنواتي وتلاشت آمالي في ذاتي الطبيبة، الأمان النفسي عندي أهمّ بكثير من الأمان الجسدي والشكل الترفيّ، كيف زيّنت لنا الهجرة ولم نشعر أنها فخ نصب لنا لنتخلى عن ذواتنا وأحلامنا، عن حقّنا في العودة إلى وطننا، إنها مؤامرة لتغييبنا عن القضية وإلقائنا في مهب الريح.

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٢ - إرهابيّ في السفارة

اتُّهمت بالإثم والتواطؤ والاعتراف بوجودهم لمجرد التفكير بطلب تأشيرة زيارة لوطني السليب من السفارة الإسرائيليّة، مع إنّي أرفضهم كياناً وتكويناً وآمل بالتحرر من سطوتهم يوم وحدة الرأي والصفّ، استشرفت مبنى السفارة المقام على أرض عربية ومحاطاً بمساحات شاسعة خاوية لأجل الاحتياطات الأمنية، وقد انتصب أعلاه علم تتوسطه نجمة داود الذي خلته يحدّق باستفزاز خانق معلناً توالي هزائمنا ونافثاً قيم الذلّ والمهانة، فأغبشت عيناي غمامة قهر.

انتظرت طويلاً وحزّ في نفسي رؤية طوابير الذلّ تنتظر في ساحة السفارة، الذين جاؤوا من الأصقاع البعيدة لاستجداء تأشيرة دخول لوطنهم السليب، ونجحت في الوصول إلى عقر وكرهم، وانهالت عليّ الأسئلة من الموظفة كراجمات استفزازية، وبيّنت لها رغبتي في زيارة وطني للتعرّف على بقيّة أهلي الذين هم أسرى ذلّهم، وزيارة المسجد الأقصى، تحققت من بياناتي وبلا مبالاة "نأسف، لا زيارة لك" أربكتني العبارة وخلت ذاتي قاسية الخواء وأصمّت أذنيها عن استفساراتي وكأنّها أرادت اقتلاع جذري، فخرجت أجّر خيول الخيبة، وسرت لمدة ربع ساعة لموقف سيارتي، بسبب الإجراءات الأمنية المشددة، وفجأة سمعت صفارات إنذار تدوّي وحشود قوات الأمن العربية في حالة استنفار قصوى تتحرك مسرعة من كلّ الاتجاهات ومكبّرات الصوت تعلن "سلّم نفسك وإلاّ سنطلق عليك النار".

أصابتني رعدة خوف من وقوع اشتباك ناريّ وكأنّي وسط بؤرة حرب، فجريت لتسبقني أنفاسي، ونظراتي باحثة عن ملاذ لي من رعب قادم واستكنت بمكان جانبي، تحلّقت القوة حول الهدف الذي كنت على بعد أمتار منه، وإذ به طفل في الخامسة يحمل بيده برتقالة وسكين يريد تقشيرها وأمّه بقربه تجلس أرضاً وفي حضنها رضيع، تنتظر للحصول على فيزا لزيارة أهلها في الأرض المحتلة، تقدّم

قائد القوة العربية وسحب السكين من الطفل وضربه على يده منبهاً "كيف تحمل سكيناً وأنت في حضرة السفارة، لقد شاهدوك من خلال كاميراتهم" وعُنّفت الأمّ بقسوة، وهاتف موظفي السفارة: سيدي لقد ألقينا القبض على الهدف والأمن مستتب، الآن أهدؤوا نأسف للإزعاج إنّه إرهابي صغير أقصد طفل صغير يحمل سكين فاكهة ويقشّر برتقالة ليسد جوع الانتظار.

صفعني الموقف وزلزلني؛ أتستنفر قوّة عربية هائلة لحماية سفارة إسرائيليّة على بعد مئات الأمتار من طفل صغير، وجنودهم يقتلون مئات الأطفال والنساء على أرض فلسطين، وهذه القوة الجبّارة التي تحرك سياسة العالم تخاف من سكين فاكهة بيد ولد صغير وملايين العرب يحسبون لهم ألف حساب، وعدت أدراجي والخيبات تحرقني.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٣ - أسرى الحدود الوهميّة

نقل التلفاز خبراً سارّاً، لقد أصدرت حكومة تونس قراراً بالتنقل بين تونس والمغرب بلا هوية، فرحت للخبر وكأنّ الثورات العربية أخذت تقطف ثمارها، وتمنيت لو يتحقّق هذا الحلم العربيّ من الخليج إلى المحيط، وعادت بي الذاكرة إلى سنوات راحلة يوم قامت حرب الاجتياح على لبنان، كنت وقتها أعمل في بلد عربي نفطيّ ولظروفي الصحية لم أحتمل العمل فاستقلت والتزمت بالمغادرة.

أقلعت الطائرة إلى بلد الإقامة الدائم، وفجأة طُلب من الطائرة العودة للمطار لظروف أمنيّة بسبب الحرب، انتظرت في المطار بعد إلغاء الرحلة ومُنعت من دخول البلد لأنّي أنهيت عقد عملي معهم، رجوتهم إعطائي تأشيرة زيارة ريثما تنتهي الحرب، رفضوا، وطلبوا منّي المغادرة إلى أيّ بلد، وتبيّن لي بعد معاناة أن كلّ بلاد العرب تحتاج لتأشيرة دخول لأنّي أحمل وثيقة لاجئة، ناشدتهم، أليست بلاد العُرب أوطاني من الشام إلى تطوان!

اتصلت بمعارفي هاتفياً فوافقوا على استقبالي في بلد عربي، وفي المطار مُنع دخولي لأنّي أحمل ثيقة لاجئة، وجرّتني المجندات عنوة إلى القاعة التي يتجمّع فيها المسافرون، بكيت "أأظل معلّقة بين السماء والأرض!" بعد خمس ساعات جاء الفرج، وإذ بمعارفي ومن خلال نفوذهم عملوا تأشيرة دخول فوريّة، بقيت إلى أن حطت الحرب أوزارها، وأردت العودة لبلد الإقامة، ولسوء حظي انتهت مدة "وثيقة السفر" فذهبتُ إلى السفارة لتجديدها، كان ازدحام المراجعين محيّراً، الكلّ يتقدم لزيارة هذا البلد لأغراض مختلفة، أهمّها السياحة وارتياد النوادي الليليّة، أو التمتع بالمناظر الطبيعيّة الخلاّبة، والحصول على موافقة تعني لهم تصريح لدخول عالم الأحلام الوهّاج.

أذهلني هذا الموقف:

وقَفَتْ من بعيد مضطربة، ملابسها مغرقة في الأناقة والعريّ، استدعاها المسؤول ونظراته متشككة سألها مستنكراً "بياناتك خاطئة في حقل الجنسية السابقة، لست مواطنة كنت من حملة الوثائق" ردّت بثقة"بل مواطنة" وتلعثمت قليلاً وأخذت تدافع لتؤكد بلهجة المواطنين وطنيّتها، لكنّ حروفها أبت إلا أن تنزلق وتعبّر عن هويتها مما أكد شكّه.. وصله "بالفاكس" دليل الإدانة، لم يعتذر كأيّ ممثل لسفارة بلده يحترم مكانته واسم وطنه "نأسف" بل نظر إليها بازدراء وصفعها قائلاً: كيف تجرئين على الانتساب لنا!!

: أرجوك، كلّنا عرب ومن بني آدم، نعم كذبتُ لأنّي أريد تأشيرة لزيارة أمّي التي ينازعها الموت!!

بصق عليها ووصفها بأقسى النعوت ونادى الأمن ليخرجها، فشدّوها عنوة وصراخها يدوّي ونفس كسيرة وعين دامعة "أريد تأشيرة" فانبرى أحدهم، قدّمي شكوى: أنت في سفارة ولا يجوز معاملتك بهذه الذلّة، هزّت رأسها باكية بحرقة: لمن، ألأحفاد المعتصم الذين تدجنت جيناتهم ووهنت وتلاشت!!

❁

٢٤ - متسوّلون ولكن

أقبل من بعيد على عكّازه وساق وحيدة يحمّلها متاعب الحياة، ونفس تعاند نخرات الذلّ ولسعات العوز، لمح سيارة فارهة تتكئ على رصيف وتستلقي بدلال بين أشجار وارفة، أسرع الخطوة وعصاه تسبقه كسهم يواجه مرارة الاحتياج، مدّ يده "لله" نظر إليه صاحب السيارة مصعّراً خدّاً متغضناً زامّاً شفتيه بقرف، ورمى بيده بعض القروش التي لا تشتري رغيف خبز، فتراجع مكسور الذات.

قعد تحت شجرة، لعلّها تفيء عليه بحنو ظلٍّ لا يشبه قسوة البشر، وسرح وراء أفكار لحلّ لغز العوز وما تفعل قروش لعائلة مكوّنة من خمسة أفراد، وإذ بصوت يأتيه من خلفه: يا أخا الفقر والفاقة كم جمعت اليوم، فتح يده، فضحك السائل: ما بال الناس قد كساها الشحّ، ومدّ يداً وحيدة على استحياء: أترى! القليل، القليل، يبدو يا رفيقي أنّ الفقر يغزو الجيوب والقلوب.

سأله عن سبب فقدان ساقه، ردّ عليه بفخر: شظية فصلت ساقي عن جسدي في حرب الرصاص المصهور على قطاع غزة، وأنت؟ طأطأ رأساً أثقلتها الهموم: فقدت يدي في ميدان التحرير في ثورة البحث عن الحقوق المسلوبة في "موقعة الجمل" فأنت تفخر بساقك لأنّها وسام فخر من عدوّك، لكنّ وجعي أكبر لأنّ الذي تسبب ببتر يدي ابن بلدي، وهذه حرقة لا شفاء منها، والله المستعان.

اقتربت امرأة تتسول لليتيم الذي تحمله فسألها عن سبب موت أبيه، ردّت بأسىً: قُتل أبوه وأعمامه في باب عمرو في حمص. وزاحمت الأيدي الممدودة يد طفل عراقي أفرزته الفتن الطائفية "لله يا أهل المروءة، لم أذق الطعام منذ يومين"

خاض المتسولون حوارات سياسيّة عقيمة وأسئلة تهافتت لاستنتاج أسباب الثورات التي أوصلتهم للحال المتردّي "من الظالم والمظلوم، من صاحب الحق ومن ومن..؟" ووصلوا إلى حقيقة مريرة أدمت القلوب "الخاسر الوحيد هو الشعب

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الذي يلاقي الذلّ والهوان باسم الثورات العربيّة" صمتوا إزاء طوفان الحيرة وتقلّب الأمور وإذ بهم يرون قتاماً يسيطر على الأجواء وتبيّن لهم إنّهم ملايين المتسولين تبحث عن أمكنة على أرصفة العالم العربي.

اجتمع المتسوّلون لإنشاء نقابة لهم وقد تمسّكوا بمكانتهم عند الناصية، واختلفوا لاعتقادهم أنّ كلّ واحد هو الأنسب للقيادة، واصطرعوا بفوقية الرئاسة وعنجهيتها، اقترح أحد المتسولين "يا قوم ما ضرّكم لو كان مصدر نهجكم شريعتكم السمحاء! كونوا منفّذين لصوت الحقِّ، ليستقرّ السلام وتتنافسون للأفضل" لكنّ هذا الصوت ذوى مع ضجيج السيارات الفارهة التي تحمل الأموال والآمال المنهوبة من الوطن الكبير وتمرّ كالسحاب تنظر بازدراء للحشود المتنافرة "مساكين سلبنا خيراتهم وما زال صراع المناصب يضعف مقدّراتهم".

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٥ - وانتظرَ رفاق الدراسة

توالى القصف على حيّ الشجاعيّة في قطاع غزّة، هربت الأسرة لمزرعة الدواجن الكائنة بمنطقة آمنة نوعاً ما، حملوا ما خفّ وزنه واشتدّ عوزه، ارتاحوا لأيّام من دوي آلة الحرب، وبما أنّ هدف العدوّ التمشيط المكاني فلحقهم قصف الطائرات بضرباته القاصمة، وقضت العائلة من جرّاء القصف على المنطقة إلاّ الصغير "نزار" لأنّه كان يلاحق دجاجة في مكان قصيّ، عاد للمكان فوجد جثث أسرته منتشرة هنا وهناك، وحطّمت القذائف البوابة الكبيرة لـ "بركس الدجاج" الذي اندفع نحو رائحة الدم لينقر العيون والجراح، أفزع المنظر نزار وفجّر حزنه وأخذ يطارد الدجاج لإبعادهم عن الجثث"كش، ابتعدي عن عين أمي التي بكت لأجلي، "كش" ابتعدي عن يد أبي التي احتضنتني، "كش" ابتعدي عن فم أخي وأختي وو..." وبعد ثلاثة أيّام من مطاردة نهم الدجاج لأجساد القتلى وصل الإسعاف للمكان وحمل الجثث للمقبرة، انتهت الحرب وعاد نزار للمدرسة ليحكي قصّة الرعب مع دجاج المزرعة، الذي منعهم من نقر عيون أهله وأجسادهم، جلس على مقعده ينتظر رفاق الدراسة، دخل الأستاذ ليضع بطاقات على معظم المقاعد، فقرأ نزار، هذا مكان "علي" استشهد في.. وهذا أحمد قضى في.. وهذا خالد.. وهذا.. يبست حروفه، لمن سيحكي قصّة حربه مع الدجاج وقد سبقتهم بطاقاتهم لتحكي، فبكى ليروي حزن المقاعد على اصحابها.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٦ - الأسيرة

تربّعت الأسيرة "قاهرة السعدي" في ركنها المتعفّن يسحقها الواقع المرير وتلفّها الحسرات كشرنقة، الذاكرة ترحل لليوم الذي رمى ابنها ذو السنوات السبع حجراً على جنديّ إسرائيليّ جاثم على أرضه، فضربه الجنديّ بكعب بندقيته، فاندفعت بتلقائية وطعنته بسكينها، فاقتيدت للأسر المقيت، توالت السنون وهي لا تدرك شيئا مما حولها إلا صوت الذبذبات الصوتية التي تصلها عبر مكبّرات الصوت لتنقل للأسرى تحايا ذويهم، ويحدوها الأمل بسماع صوت أبنائها عبر الأثير، لكنّها تعرف بأحوالهم الماديّة التي قد لا تسمح لهم بزيارتها أو لم يصلهم الدور لكثرة أسرى الوطن.

اليوم أشرق في نفسها الأمل وتوالت الأصوات بنبرات مثقلة باللوعة والأسى، ووصل صوت ابنها لشغاف قلبها "أماه، ارجعي مشتاق إليك، ليتني لم أرمِ الحجر، هديتي في عيد الأم تفوّقي الدراسيّ" هتفت ابنتها "كلّ عام وأنت بخير يا أمي الغالية، تعالي لنحتفل معك بعيد الأم أشتريت لك هديّة" بكت بحرقة، وصوت صغيرها الذي أُخذ منها عنوة بعد فطامه "ما..ما .. ما..ما" ورنّ صوت زوجها بدفقة شوق "حبيبتي أنا بانتظارك، لا تقلقي كلّنا بخير".

أحيت نداءاتهم قلبها كمسحة رحمانيّة على النفس الملتهبة شوقاً إليهم وأدخلتها كلماتهم المقتضبة دائرة الفرح إلاّ أنها قذفت بها بعيداً في دوّامة الحزن والقهر تجترّ آلامها بمرارة لا تدري متى ستعود إليهم، فكلّ مَنْ في الأسر ليسوا أحسنَ حالاً منها، استسلمت بأسىً رافعة رأسها للسماء لترى قضباناً حديديّة تملأ الأجواء فأيقنت أن الوطن كلّه أسير الذلّ والهوان، وتنهّدت متحسّرة: أما آن لهذا الوطن أن يتحرّر من الأسر؟؟

❁

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

٢٧ - غربة وجود

أقبلتُ عليه بشوق وقد غضّن الهرم ملامحه وقوّس ظهره فقبّلتُ يده وطوّحتني نظراته الهائمة الفاحصة لملامحي وانفلات ذاكرته يغيّبه في متاهة السنين، سألني بكلمات تائه "أنت، أنت، مين أنت" لقد توّهته الشيخوخة بمجاهلها "أنا ابنتك" توعدني بعصاه "أتسكنين عكّا عند البحر،كيف تتركين عكّا! لا كرامة لنا إلاّ في وطننا" ثمّ عاد من تيه ذاكرته متحسّراً، ثمّ احتضن كفي "إيّاكم والتّيه، فلسطين سلبها اليهود، وزيارتها أمانة في عنقك لأنّها نبض الحياة" ووعدته صادقة.

شاء المولى أن يرحل لمثواه الأخير، والوعد يلحّ عليّ، فشحذتُ الهمّة لنيل تصريح زيارة من السفارة الإسرائيليّة وبعد معاناة ردّ موظف السفارة "الزيارة ممنوعة، لا أصول لك هنا، لعدم وجود دليل قرابة مع من تدّعين أنّهم أهلك، غيّري كنيتك" انكسرت لأنّي لم أحقّق وصيّة أبي، وتساءلت، هل اختلاف الأسماء يضيّع في متاهته الشخوص،كيف اختزل اسم الأب الحاني واسمي يشمخ بحروف اسمه وأنا جذوة من شعلته، أينسى الظلّ حنو باسقات الغصن وينسى الأريج الورود، أبدّل أسماءنا وقد اختزلولنا أرضاً وشعباً، ووجوداً! فالأسماء كالأرواح تخترق عباب الذاكرة فمنها ما ننحني له فخاراً أو تعتصر الأفئدة منه ألماً وقهرا، أتمحو مصر من ذاكرتها بناة الأهرام، وينسى الأردن الأنباط الذين أشادوا مدينة "البتراء"! وكيف أتجاهل أجدادي الذين كانوا من المسحوقين وقد وطأتهم أقدام العابرين.

دهم الحزن قلبي لطلبهم وتذكّرت حكاية أبي مع اللجوء وكيف طاردته رياح الخوف والحقد صبيّاً أغرّاً من أرضه لبلاد الشتات، فحمل في جيبه حفنة رمل، وفي الأخرى أصدافا من بحر عكا تترنّم بحكايا الذكرى، زرتُ قبرَه معتذرة وخلت نشيجَ بكائه يعانق حفيف أوراق الشجر، لقد عمل أبي بصبر دؤوب ليحقّق أمنيته في بناء عمارة يسكن فيها كلّ أولاده لأنّ الشتات غدا هاجسه، وممّا زاد قهره

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

رفض الحكومة توثيق ملكيّة البناء لأنّه لاجئ، وعانده الحظ حين أعدّ إخوتي العدّة للهجرة للغرب، رجاهم ألاّ يفعلوا باكياً ""كفانا اغتراباً" وتصدّع قلبه حين أعلمه أخي بحصوله على الجنسيّة الكنديّة، وأخي الأصغر يعمل المستحيل للحصول على الجنسيّة الألمانيّة.

هاتفه أخي الأكبر من السويد: لا تغضب منّا، إنّ زماننا قسى علينا، لم أنسَ ما حييت ما حدث لي زمن الحرب، حين قدمت لزيارتكم من بلد عربيّ وأغلق المطار لأسباب أمنيّة، وظللت انتقل من مطار لآخر في الأجواء العربيّة لمدّة شهر، حتى استُقبلت في السويد كلاجئ سياسيّ، ومن يومها قرّرت التخلّص من الوثيقة الفلسطينية التي لغت إنسانيّتي. ردّ متحسّراً "كيف تتنازلون عن كينونتكم وأجيالكم ستذوب في الاغتراب" وعاش لاجئا وحين توفّاه الله كان وحيدا.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٢٨ - أبي زيتونة الأرض

التقيا وتعانقا بلهفة وشوق رفقة الصبا التي تدغدغ حنين الذاكرة، وتطارحت الاستفسارات بينهما، بادر أبو محمّد: لقد شرّفتنا بموقفك حين رفضت الملايين مقابل إخلاء بيتك في مستوطنة "بيت إيل" ولتؤكّد وجود وطنيين أحرار وإصرارك على أن تبقى شوكة بحلوقهم، ردّ أبو العبد باستياءً: لقد أحزنني حال "أبو عمر" الذي ضبط في خزانة ولده أموالاً كثيرة واعترف أنّه باع حصّته في جبل "أبو غنيم" لليهود، مبررا فعلته لسدّ عوزه وجوعه ولغيظه من صديقه الذي أثرى من عمله في السلطة لاقتناصه أموال التبرّعات وهدرها، فاستشاط غضباً لخيانة ولده فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً.

اعترى أبا محمّد قلق على أرض الزيتون الشاسعة في الخليل وفكّر بحلّ ينقذها من البيع والتقسيم، لرغبة أولاده في تقسيمها بينهم وكأنّ أوصاله ستُمزّق، لذا أوصى أنّ يُدفن وسط أرض الزيتون بمكان اختاره، وبعد موته بسنة، مرّت دوريّة إسرائيليّة بأرضهم وشاهدوا القبر فحاصروها مدّعين أنّ القبر لأحد أنبياء بني يهوذا، لذا أضحت الأرض ملكا لهم، فأحاط الأبناء القبر بأجسادهم "هذا قبر أبينا وأراده هنا لترتوي عظامه بزيتوناته، لن تستولوا عليها بأدلّتكم الوهميّة، ولن تقطّع أوصال أرضنا وعرضنا، ولنظلّ قوة في وجه الاحتلال.

❁

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

٢٩ - سرّ المغارة

الجند يطوّقون المنزل وطرق عنيف على الباب، رجفة خوف اعتقلت قلبي، إنّهم يطلبون "ثائرا" نثروا ماخفي في المنزل ولم يجدوه، لكنّ هذا المقنّع أشار لمكان اختبائه في فتحة مخفيّة تحت السجادة، أدهشني الموقف وكأنّه خبّأه بيده، فاحترقت فضولاً لأعرفه، فهجمت عليه في غفلة فغطّى وجهه بيديه، صفعته بشراسة وذهلت حين نزعت قناعه، لأجده ولدي الأكبر، لم تحرقني الصدمة لأنّي أدرك جشعه للمال ومقدار حقده على أخيه، ومما أضعف رابطة الأخوّة بينهما انتماء كلّ منهما لتنظيم معاد للآخر، فطردته من حياتنا.

انتظره عند المخبأ السرّي "أبو نضال" احد قياديي المقاومة الصناديد وقدوته، وربطتهما علاقة حميمة لا يعلم سرّها أحد، أمروه بمكبّرات الصوت بالخروج من مكانه والاستسلام لهم، وعدوه بالأمان، لكنّه رفض الانصياع لهم لأنّه يأبى المذلّة، حاول أبو نضال إقناعه بتسليم نفسه لأنّ الأسر أهون من الموت، فخرج ثائر رافعاً سلاحه موحياً بالاستسلام، لكنّ نظرة إباء وعناد تتّقد في عينيه، واقترب منهم مفرّغا نيرانه فيهم، فقتل منهم الكثير واكتنفته الشهادة، وانكفأت أبكيه بنواح وعويل، وبكاه أبو نضال بحرارة وجيعة، فقلت له "يبدو أنّ حبّك له لا حدود له" ردّ متحسّرا "أحببته كأنّه ولدي وقطعة منّي" رمتني يقظتي الجريحة في لجّة البوح الخفيّ لذكرى بعيدة وحقيقة ماثلة "إنّه ولدك ودمك يجري في شراايينه" صعقه الاعتراف وأطبق صمت لم تقدّر مدّته.

سردتْ بدمع حارق: أتذكر ذاك البعيد في المغارة الرابضة على أطراف قريتنا التي شهدت قصّة حبّنا وكنت تضيئها بالشموع وتغزل لي أجمل كلمات الهوى، تأوّهت تنهيداته: لن أنسى ليلة زفافنا حين أخفتني يد الغدر في خبايا الأمكنة ثمّ

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

خلف جدران الأسر، وتابعتْ سردها: لقد سلّم الجميع بفقدك وكأنّك في جوف الموت، وأصرّ والدي على تزويجي لآخر عنوة، ويقيني أنك ما زلّت على قيد الحياة، رضخت لضغط أهلي وسلّمت جسدي لرجل بعقد قران آخر وجذوة حبك تُلهبني، كلّما شدّني حنين أسعى للمغارة لأسترجع صدى ومض حبّنا.

بعد سنوات التقيت بك صدفة في المغارة فارّاً من الأسرّ وإصرارك أنّي مازلت زوجتك، والتقينا تحت ستار لهيب الشوق وزالت الحواجز والقيود ثمّ فررت بعيداً عن عين العدو واختفيت ثانية في غيابات الزمن، وكان ثمرة اللقاء جنينا لم يعلم سرّه غيري وتحرّك ولدك بأحشائي، وولدته وربّيته مع إخوته ومنحتُه عاطفة وهّاجة، مات زوجي وكبر ثائر مع أولادي، لكنّ ابني الأكبر حقد عليه لاهتمامي العظيم به، شبّ ثائر والتحق بالثورة والتقى بك كقائد ولم يعلم أنّك أبوه، وكان يحدثني عنك باسمك الافتراضي، واستغربت سرّ تعلقه بك، وعندما طرقت يوماً باب بيتنا سائلاً عنه عرفت سرّ حبّه لك، ولم يدرك علاقة الأبوّة التي تربطكما،احتضن يديّ وحسرات اللقاء الوداعيّ تحرقه "لقد هاجمني هاجس وإحساس خفيّ أنّ ثائراً ولدي"، افترقنا وظلّت روحي تهيم مع الغالي الذي قضى، ومع الحبيب الذي مضى.

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٣٠ - قبلات مهينة

في وقدة شمس لاهبة، تتسارع أرتال السيارات للوصول إلى غايتها، والسراب يراقص أخيلة قهر على إسفلت رماديّ، هوى فجأة حاجز إسرائيلي، وأخذت الأبواق تعلن ذلّ الأوامر "إجراءات أمنيّة، تفتيش!!" وقف الناس بقلوب ساخطة، أسكتوا أفكارهم النضاليّة، رسموا ابتسامات باهتة، انتظروا ساعات، تدقيق وتحقيق ومساءلات غاشمة: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين ... وكلّها جرعات لؤم تنصبّ فوق كرامة الشعب الجبّار الأبيّ.

جلست مرتبكة في سيارة الأجرة، تحمل كتبها بيمينها، تنظر للسراب وتخاله جزرا في أرخبيل الصمت، هوى قلبها عندما رأت الحاجز، امتحانات الجامعة على الأبواب والدقائق ثمينة، اجترّها الخوف، هذا التأخير سيضع ذويها في حالة قلق، عدّلت غطاء الرأس، رسمت ملامح غضب على سيما الوجه الجميل، بعد طول انتظار وصلها التفتيش، فنظر الجندي إليها باشتهاء، شفتاه تتلمظان قبلات جوفاء، قطّبت جبينها وأطلقت عليه نظرات حقد، لسان صمتها يردّد "إلاّ

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

الشرف، كيف تجرؤ على هذه النظرات" حقد عليها، رفع سلاحه في وجهها مهدداً "يلّلا، عقاباً لك، يجب أن تقبّلي كلّ رجل في السيّارة" كانوا سبعة ركّاب وهي الثامنة، الشمس تلسع الجباه بسياط قهر، ولا تزاور عنهم يميناً أو يساراً، الكلب مدجج بسلاحه مهدداً "إن لم تنفذوا ستقتلون جميعاً".

حار الجمع، ليس وهنة جبن بل حفنة صبر فهم أهل الشجاعة والبطولة، مرّت لحظات قصيرة محتشدة بالانفعالات والأسئلة والأخيلة، ارتسمت في عينيها نظرة فزعة وأسئلة غامضة، انبرى أحدهم: من الحكمة التروّي والتحلّي بالصبر لن نقع في مصيدة هذا الكلب، لن تكون مجزرة بسبب موجة جنونه فدماء الشهداء لم تجفّ بعد والدفاع عن وجودنا حقّ. تشاوروا، وافقوا واتفقوا مرغمين على أمره الدنيء، وبدأت عمليّة التقبيل ودمعها ينهمر كشلاّل، الشفاه تلامس جمر المهانة، عيوناً مليئة بالذلّ والقهر، هذه القوّة العمياء لا تصرّح ببطشها إنّما تصرّح بكونها عديمة الخلق، انسحب الحاجز وهم يسجّلون صورة من صور الذلّ لشعب أعزل ويدركون أنّ المساس بشرف العربيّ حرق له.

وصلت البيت ودموعها كغزارة مطر، ماذا ستفعل؟ أتدخل دوّامة العار؟ هل قُضي على سمعتها في موقف لا يد لها فيه، أتتناقل الألسن حكايتها ويشار إليها بالبنان؟ "هذه أجبرت على تقبيل سبعة رجال على مرأى أبناء وطنها"، بعد أسبوع طرق باب أهلها أحد الذين قبّلوها، عرفته، وارتجفت لرؤيته وأخذت الوساوس تهاجمها، ماذا يريد؟ أيكون دونيّاً يريد استغلال موقف أو حالة، جفلت واغرورق دمعها، وهاجمتها ذكرى الحادثة التي ما برحت مخيّلتها، تكلّم ونبراته موشاة بعبق الحياء: لا تفزعي، جئتك لأرفع عن جبينك ومضة الذلّ وأُعيد إليك كرامة هُدرت من عدوّ قذر، ولأنّ نخوة الرّجال تجذّرت فينا، جئتك خاطباً! أردفت وفي عينيها رغبة في البكاء "ونِعمَ الرجال".

❁

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٣١ - أين أضع الحذاء

كان أبي يسافر للقدس مرارا لزيارة عمتي ويحبّ أن أرافقه لأنّي صغيره الوحيد ويتأبط جريدة يوميّة ليتصفّحها عبر الطريق البري الطويل، كانت تعجبني لفة شماغه التي تدلّ على العزّة والإباء، عندما نصل للجسر الفاصل بين فلسطين والأردن يأخذ الجندي اليهودي بالتفتيش ويأمر أبي أن يخلع شماغه عن رأسه أولا، ليضعها في قفة التفتيش ثمّ يأمره بخلع حذائه ليضعه فوق الشماغ، حاول أبي مرّة أن يضع الحذاء أولا ثمّ الشماغ، فنهاه الجندي: ممنوع، هيك لازم!

سأله بمكر: أنت، يا عربي، إيش أخبار جريدتك؟

فيردّ أبي باعتزاز: ثورات وانتفاضات وعمليات فدائية، وبدنا نحرر فلسطين، رح يجي يوم ما يكون في تفتيش ولا معابر ولا جسور، ويصير وطن عربي حرّ واحد .

مرت السنون وفي كلّ زيارة للقدس الشريف يصرّ الجندي أن يكون الحذاء فوق الشماغ، وكنت ألحظ مسحة الذلّ على وجه أبي.

أوصاني أبي قبل موته "لمّا تزور القدس البس شماغي ولا تفرنج بالطاقية هاد سبرنا وما تتركوا عاداتنا"، أخذتني مشاغل الحياة ولم أزر القدس من سنوات بعيدة . .

اتصل بي ابن عمتي منذ سنة "تعال نتفاهم لنبيع ميراث جدنا من أراضي القدس بملايين الدولارات".

سافرت للقدس الشريف ومعي أصغر أبنائي ولبست شماغ أبي وحملت جريدة كي أتصفحها، وفي الطريق نازعتني الأفكار، نفسي تميل للبيع لأنّ ضيق ذات اليد يكاد يخنقني وعقلي يرفض البيع تمسكا بإرث الأجداد ولأني لا أعرف لمن ستباع الأرض؟ وصلت الجسر، آليّة التفتيش قد تغيّرت واستبدلت السلال البلاستيكية بالقفة فوق شريط إلكتروني، تصفّح الجندي تصريحي وقال بمكر: لازم توافق على طلب قريبك، هط خبيبي شماغك في سلة والكندرة في الثانية، استدرك هازئا: الشماغ خربان ارميه

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

بالزبالة، أنا كتير مبسوط من أخبار جريدتك اللي بتنزف دم، ما في وطن عربي واحد، قطّعناكم خبيبي بإيديكم.

طأطأتُ رأسي ذلا لنزف أمتي من بين سطور جريدتي، وابني الصغير مستكين في عينيه دمعة وبيده حجر، ورفعت حذائي ولم أدرِ أين أضعه!!!

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٣٢- القدود الحلبيّة

تمايلت بوتيرة واحدة على كرسيها الهزاز لتغفو على إيقاع تكات الساعة الجداريّة، أو ترقب العمال من حديقتها المحاذية لعمارة قيد الإنشاء، لتسأنس بأصوات مطارقهم وهرجهم، وتغبط نشاطهم. في يوم سمعتْ شدوا شجيّا للقدود الحلبية لأحد العمال، غناؤه يحكي شجن ولوعة الاغتراب والحنين للوطن، أخرجها الغناء من رتابتها مثيرا غزير دمعها على أولادها المغتربين.

طرقٌ على الباب، فتحت، وبأدب جمّ "خالة، نفدت مياه الزير من الورشة، نريد شربة ماء بارد" أعطته ماء، وفي اليوم التالي دقّ الباب واعتذر عن الإزعاج "نفد الماء أريد أن أتوضّأ" رحّبت به "في أقصى الحديقة دورة مياه" بسطت سجادة الصلاة "لن أزعجك سأصلي بالعمارة" رجته "أتحرمني الأجر!" أقام الصلاة، أذهلها صوته في تكبيرات الأذان، في مناجاته لله خشوع باكٍ وكأنّه في ملكوت آخر، رجته "بني سأنتظرك يوميا لصلاتي الظهر والعصر" نشأت بينهما ألفة، سألها عن أولادها الذين تملأ صورهم الجدران "وائل استشهد في الحرب الأهليّة اللبنانيّة، خالد وأسامة هجّرتهم الحرب للدنمارك، وأضحيا ذكرى، سامي في مصحّ نفسيّ بعد أن توّهت الصراعات السياسيّة والحروب عقله، ثمّ تنهدت متحسرة "لمَ نخوض حروبا لا جدوى منها!"

.

كانت تعدّ له الشاي مع الساندويتش أو الكعك، وتستأنس بروعة صوته في شدو قدوده الحلبية ومواويل يغنيها للأهل والحبيبة، أخبرها أنّه ترك مدينة حلب هربا من حرب لم يفهم أسبابها وخباياها ولن يدرك فظاعة عواقبها، لكنّه خبّأ شهادته الجامعية آملا بعودة الحياة لوطن يئن بجراح الفتن، حان وقت الرحيل، ودّعها "أمي، رغم قسوة الحرب أحبُّ صوم رمضان الفضيل بين أهلي، سألقاك بخير بعد العيد" دمعت عيناها لوداع أيمن الحلبي وانتظرته شهورا، لكنّه لم يعد.

في يوم سمعت آخر يترنّم بالقدود الحلبية، استدعته، وسألته عن أيمن، عرفه وسرد قصته بوجع "إنّه هناك في مكان ما في حلب، لقد عُرف عنه التواجد في الجامع قبل الأذان للتسابيح وقراءة القرآن، وبينما ينتظر يوما أذان العصر الذي لم يُؤذن له، دخل غرفة المؤذن فوجده مضرجا بدمائه، وأدرك بتقواه أنّ لا شيء يعيق صوت الحق فاعتلى

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

المنبر ورفع الأذان.

سمعته جماعة تكفيريّة، فاعتقلوه وكفّروه بتهمة التغنّي بالأذان، وعذبوه ليعترف أنّ "التغني كفر"، لم يحتمل سطوة التعذيب لأنّه لا يريد حرق قلب أمّه وحبيبته وعائلته التي عرفت بتقواها وصلاحها، اعترف بما أرادوه للخلاص، لكنّهم قتلوه". بكته بحرقة، وعلّقت صورته على غربة جدرانها وأوصدت بابها وأذنيها عن قدود وئدت ظلما، وأرسلت للعمال الماء صدقة عن روح أيمن، لأنّ جدرانها لم تعد تتسع لصور ضحايا الفتن التي زلزلت الأوطان.

❀❀❀

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

PDF-XChange
Click to buy NOW!
www.tracker-software.com

٣٣- وفى بوعده

اليوم عطلته المدرسيّة، ألحّ بلثغته المحببة "أمي أريد فطورا فاخرا"، ابتسمت لحروفه التائهة وردّت ممازحة "ليتك تصحح حرف الراء أو لا تحكي كلمات فيها حرف راء" احتضنها "أحبّك أمي" هدهدت خده "أسرعْ لأقرب محل واشترِ كيس خبز" ردّ راجيّا "انتظري لأُنهي اللعبة، والله والله سأحضر لك خبزا، لا تقلقي، دائما أوفي بوعدي" انتعل حذاءه ولوّح لها مودعا ناثرا قبلاته في الهواء وهرول طاويا الدرجات "لا تخافي، الخبز لن يسقط مني أرضا لأنّي سأربطه بمعصمي، مع أني لا أحبّ قيد اليدين، ولمّا أرجع سأتناول الفطور"

أطلّت من الشرفة، عشرات السيارات مصطفّة بالشارع، انتابتها هواجس السيارات المفخخة، فرددت: "ليتني لم أرسله لقد تأخر قليلا " نظرت من بعيد، ها هو قادم ملوحا لها بيده ليريها كيس الخبز مربوطا في معصمه وضحكة كبيرة على وجهه وإشارة تساؤل بيده الصغيرة "هل الفطور جاهز؟ .

ابتسمت له، وقبل أن يرتدّ وميض الابتسامة، هزّ انفجار الشارع، ضباب أسود، نيران لاهبة، التفت بومضة برق تريد النزول بحثا عنه، لمحت على أرضيّة الشرفة شيئا، حدّقت فيه، ذراع صغيرة مبتورة وكيس خبز مربوط في المعصم، وصدّع صراخها دويّ الانفجار..... .

❁ ❁ ❁

مجموعة قصصية

الفهرس

العنوان	الصفحة
الإهداء	٥
١ - في الموت يبسمون	٧
٢ - في بيتي وطن مسروق	١٠
٣ - هويّة حروف	١٣
٤ - عاشق لوحة	١٦
٥ - وانحرف الميزان	١٨
٦ - دعوة للرقص	٢٠
٧ - حكاية الطرح	٢٢
٨ - دثار أمّي	٢٥
٩ - قضيّة إهمال	٢٧
١٠ - وتفجّر البركان	٢٩
١١ - الوجه الآخر للثورة	٣١
١٢ - ثمن الفداء	٣٣
١٣ - حمل سِفاح	٣٥
١٤ - وهتف الصغار: فلسطين حرّة عربيّة	٣٩
١٥ - زمن الرجال	٤٢
١٦ - القنبلة لم تنفجر	٤٤
١٧ - السندباد في بلاد الشام	٤٦
١٨ - وعصفت الذاكرة	٤٩
١٩ - لقاء في مالمو	٥٢

مجموعة قصصية

٢٠ - صائد الخفافيش	٥٥
٢١ - مرارة التغريب	٥٨
٢٢ - إرهابيّ في السفارة	٦٠
٢٣ - أسرى الحدود الوهميّة	٦٢
٢٤ - متسوّلون ولكن	٦٤
٢٥ - وانتظرَ رفاق الدراسة	٦٦
٢٦ - الأسيرة	٦٦
٢٧ - غربة وجود	٦٨
٢٨ - أبي زيتونة الأرض	٧٠
٢٩ - سرّ المغارة	٧١
٣٠ - قبلات مهينة	٧٣
٣١ - أين أضع الحذاء	٧٥
٣٢ -القدود الحلبية	٧٧
٣٣ - وفى بوعده	٧٩
الفهرس	٨٠

❁

التنضيد الإلكتروني والإخراج الفني
قسم الكمبيوتر في / دار الحسن للنشر والتوزيع

PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com
PDF-XChange Click to buy NOW! www.tracker-software.com

<u>مجموعة قصصية</u>

هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ . فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ . عمان ١١١١٨ . الأردن
e.mail: alhassanpub@hotmail.com